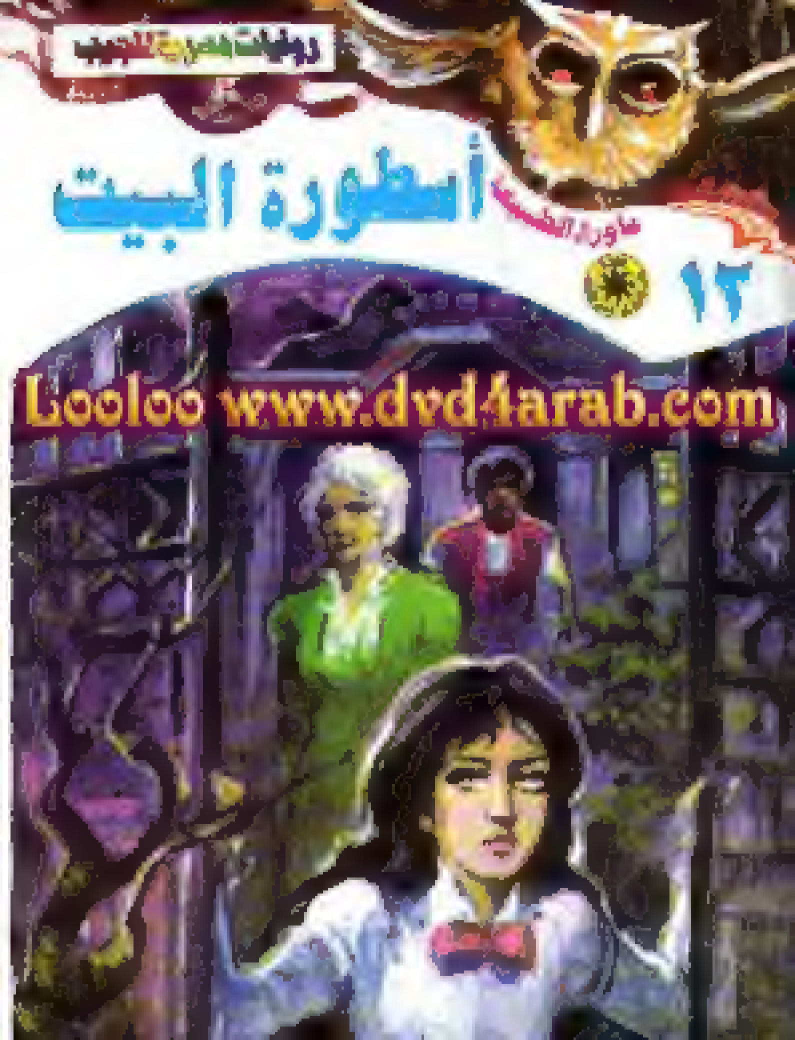

روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
أسطورة البيت
١٣
Looloo www.dvd4arab.com

مقدمة

مرحبًا ...

الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد وهاوي الأشباح يتحدث إليكم ..

أنا الشيخ الوحيد المتهالك الذي يقضي لياليه الأخيرة مسترجعًا ما كان في شبابه من أحداث ، والذي قضى ليلته جوار مومياء (دراكيولا) ، وصارع (العساس) في الصحراء ، وطاردته لعنة الفرعون (أخيروم) ..

لقد ولّى أصحابي جميعًا .. وها هي ذي صفارة القطار تعلنني أنهم جميعًا قد ركبوا وأنّ عليّ أن ألحق بهم إلى عالم آخر ..

لكني أتوسل لناظر المحطة – قلبي المتهالك – أن يتركني بضعة أعوام أخرى تكفي كي أفرغ ما بجعبتي من حكايات ..

لكنه يقول لي في تململ وهو يجذب كمي :

– ولكن حكاياتك هي في النهاية مجرد حكايات .. ليست نظريات علمية ولا ظروف حكمة فلتتركها للقادمين من بعدك .....

— «لكنها مسلية أيها الرجل الطيب .. مسلية! .. وأقسم على هذا ..».

عندئذ أراه يفكر .. ثم يعقد ذراعيه على صدره ويضغط:

— «إن لديك قصة مسلية أخرى .. ولكن بسرعة».

ويهز إصبعه في وجهي محذراً!

— «قلت لك أن تكون مسلية .. هه؟ .. لقد أنذرتك .. !».

فأفعل .. وأكاد ألثم يديه لولا تصلب عظام ظهري الذي يعوقني عن الانحناء .. وأبدأ — على عجل — في سرد قصة أخرى ..

لقد وعدتكم أن أستكمل قصة (هن - تشو - كان) .. لكنني لم أحدد متى .. لذا دعونا نصنع لقصة البيت هذه المرة ..

البيت .. يعرف كل شيء .. البيت يذكر كل شيء ..
البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام ..
وبوابته الصدئة مفتوحة من أجلنا ..
فهل ندخل؟ ......

١ ــ دوري يا أيام ..

العام ١٩٦٧ ...

هل كان ذلك قبل أم بعد الحرب؟ .. لا أتذكر .. لكنني أذكر أنني كنت أحيا حياة بسيطة هادئة وقد تساقطت أوراق العمر! ..

فلأقل — إذن — إن هذه القصة وقعت في الشهور الخمس الأولى من العام —

كنت — كما قلت لكم آنفاً — قد خرجت لتوي من مواجهتي العنيفة مع حارس مومياء الفرعون (أخيروم) .. (هل تذكرون قصة البللورات والرجل الغريب الذي يتعقب (هويدا) والعسل والبصل؟) ..

وكان ذلك الشعور العجيب المنعش يتسرب إلى روحي دون أن أدري من أية ثقوب يتسرب .. !

إنه الربيع ... !

أي شيء في أن يحب المرء خطيبته بجنون؟ ...

أن يقضي الساعات يحلم بتعبيرات وجهها وهي تضحك .. تغضب .. تهتم .. تحنو .. تتفلسف .. وأن يسهر الليل محاولاً فهم ما كانت تريد قوله حين أخبرته بكذا .. وكذا .. ثم تلك الشعور المنعش الغريب .. محاولة

استرجاع ملامحها في ذهنك دون جدوى .. كأنك لا بد أن تراها لتتذكر وجهها ! ..

وللشعور البعض الآخر : الشعور بأنها (ستغفر) لهذا الجنون المسعور الذي يعصف باتزانك حين تدرك أنها في هذه الساعات تضحك وتقول كلامًا كثيرًا ليس لك نصيب فيه . كأن مخزونها من النضارة والرقة سينتهي بهذه الطريقة قبل أن تتزوجا ..

عندئذ تنهض ـــ كالملسوع ـ إلى الهاتف وتطلب رقم الحبيب ..

وتنتظر في لهفة أن تسمع صوتها يتساءل ناعسًا عما هنالك ..

لو كنت تعرف رقتها الخفية (مشغول ومتعب) : « لقد اتصلت لمجرد أن أقول إنني أحبك ! » ، لو كنت تعرفها وقتها لأشبعتها عبر أسلاك الهاتف .. لكنك لم تكن تعرفها .. ولهذا كنت تختلق أعذارًا على غرار : هل نسيت مفاتيحي عندك ؟ .. هل زال الصداع عن رأس والدتك ؟ .. الخ ..

كنت تشعر أنك سخيف ..

لكنه الشوق المجنون ـ والوحدة الأليمة . كالمذءوب الذي يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر .. تتحول أنت في

كائن رومانسي أبله كلما استنشقت رائحة زهر البرتقال تجعله تستلهم الربيع ..

أصابع قدمي .. تحول كالبيوضة .. تعشق صدره لتعرف القيح وآلام الذبحة الصدرية .. لكنك ... لكنك ... لكنك ـ وربما خجلًا منك يا د. (رفعت) ـ تحب !

* * *

كنت سعيدًا كطفل نسيه أبواه في مخزن حلوى .. أو أسد وسط قطيع من الحمير الوحشية .. أو خنزير بري في بركة وحل ... أو أية سعادة تبدو قريبة لذهنك ..

وفي الكلية أصبحت ظاهرة وامتلأت بالرعب من هذه التطورات التي طرأت على شخصي الكئيب المتشائم ..

ثم عادوا يفكرون هنيهة .. ويضحكون في خبث :

ـ « وأخيرًا .. ! .. إنه الحب .. إن العجوز (رفعت إسماعيل) يحب .. ! » .

فإذا ما أشعلت سيجارة صاحوا في عتب :

ـ « وهي .. ؟ .. ما رأيها في هذه العادة السمجة ؟ »

وإذا ما أطلقت سبة عابرة .. هتفوا :

ـ « ماذا ؟ .. ألا تخجل ؟ ـ ماذا لو انزلق لسانك أمامها ؟ ! » .

أما شرود ذهني فدليل جازم على فرط هواي ...

وذات مرة سألني الدكتور (رأفت) زميلي في حيرة :

ـ « تبدل موقفك مائة وثمانين درجة ... ! » .

ـ « أي موقف ؟ » .

ـ « كنت تتزوج لمجرد أنك لا تجد شيئاً آخر تفعله .. فماذا حدث كي يدعوك للتحمس ؟ .. ماذا قد جد ؟ » ..

نظرت له في شرود ..

ماذا قد جد ؟ .. ياله من سؤال ! ..

أنا نفسي لا أعرف السبب .. إننا غير مسئولين عن مرضنا ولا عن عواطفنا .. فجأة نصحو من النوم لنجد أننا نهيم بحب فلان أو لا نطيق فلاناً .. فما هو المنطق ؟..

ربما هو التعود .. وربما هو شعور بالذنب بسبب ما عرضتها له في قصة الفرعون إياها .. وربما هو الامتزاج المشترك بيننا بعد المعاناة التي عشناها سوياً .. وربما هو أنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد ...

لا أدري .. ومن أنا كي أدري ؟ ..

فقط سيطرت هذه الفتاة على كل ملليمتر مربع من عالمي ..

والأغرب هنا هو أنني لم أنس (ملجي) قط .. لقد ظلت راقدة فوق أعلى ناطحة سحاب من مدينة ذكرياتي ، وكانت تتوهج وتتألق كعهدي بها ..

كل ما هنالك هو أن (هويدا) بدأت تكتسب المزيد من صفات (ملجي) يوماً بعد يوم !.. ، وحتى ضحكتها كنت أرى فيها شبح ضحكة (ملجي) فحضور المشرقة وروح الدعابة ..

غريب هو ذلك العالم المتشابك الكامن تحت فروة رأسي .. وأبداً لن أتمكن من فهم ذلك العالم الذي هو أنا ..

* * *

ـ « ما سر هذه الأرقام الفلكية في فاتورة التليفون؟ » .

ـ « إن مكالماتك الخارجية كثيرة جداً يا دكتور .. كثيرة جداً .. » .

* * *

ـ « إن هذه السيارة بالوعة بنزين ... » .

ـ « لابد أن زياراتك للإسكندرية لم تعد أسبوعية .. بل زادت كثيراً ! » .

* * *

ـ « إن رسم قلبك لا بأس به يا دكتور رفعت .. إن حالة قلبك لن تعوقك عن الزواج ولكن لا تنس ... التدخين هو مسمار نعشك .. » .

ـ « إنه هو ليس نعشاً .. بل دبابة ! » .

* * *

— « ولكن .. متى تتغير هذا المنظار الذي يجعلك تبدو كالمحرومين ؟ » ..

— « أنا أحب التغيير يا (عزت) .. أعشقه ! » ..

— « الزواج هو أكبر تغيير .. ومن يجرؤ عليه يجرؤ على كل شيء آخر ... » .

* * *

— « (رأفت) ... ! .. إنك تزداد رقة وهذا لا يروق لي ! » .

قابلتها (هويدا) وأنا أسير معها في (محطة الرمل) بلا هدف معين .. كانت ترتدي فستانًا أبيض من موضات السبعينات المبهرة (كانت كل فتاة تبدو كأنها بطلة فيلم من الأفلام الرومانسية ، وكل رجل يبدو كأنه فارس أحلام) .. يومها ارتديت أنا قميصًا ذا أكمام طويلة ..

قلت لها وأنا أشعل سيجارة أمام نظراتها المتوعدة :

— « وماذا تعنين ؟ .. كنت أظن عصبيتي كالعادة لا تقلقك ... » .

— « نعم ولكن ... » .

وبللت شفتيها بطرف لسانها .. ثم أردفت في حيرة :

— « .. لا أدري ... » .

لكنني كنت أفهم ما تعنيه .. هي لا تملك الفصاحة اللغوية التي تمكنها من أن تقول لي إنها تعودت على توتري وعصبيتي وآرائي المتطرفة .. ، وهذه الرقة المبالغ فيها تجعلها غير مستريحة كأنها مع شخص آخر ..

حمقاء هذه الفتاة ، لكن حماقتها محببة كتلك للسامعين .. إن الأطفال ليسوا فلاسفة متعمقين لكن كل الفلاسفة يحبون محاورة الأطفال ، لأنهم يستمتعون بكل هذا الطهر والنقاء والبعد عن التعقيد ..

قالت (هويدا) وهي تجرع زجاجة المياه الغازية التي ابتعتها لها :

— « يبدو أنك لم تجد أشياء في الفترة الأخيرة ... » .

— « وهل هذا شيء يدعو للشكوى ؟ ... » .

— « وكففت عن الأسفار ... » .

— « إنه الإفلاس ...! » .

ابتسمت في غموض وهي ترمق أسراب طالبات المدارس يمررن عن التعانق بالترام .. وهمست بعد فترة تردد :

— « إنك تعيش حياة طبيعية هذه الأيام .. طبيعية أكثر من اللازم .. وكأنك رجل كالآخرين تذهب لـ ([illegible])

بعيدًا عن الأفلاك .. ونتشاجر مع الملائكة .. و... و... » .

— « لعلها تمنيت أن أصير كالآخرين ... » .

ضحكت في خجل وتناولتني زجاجة المياه الغازية لأعيدها للبائع .. وقلت :

— « أظن .. بعيدًا عن هذا هو نوع من الهدوء الذي يسبق العاصفة .. أعتقد — وأرجو أن يخيب ظني — أنك مقبل على مصيبة .. ! » .

— « فال الله ولا فالك ! » .

— « سامحيني .. القلق والثقة من ذلك .. إن هذا الكابوس ... » .

— « كابوس ؟! » .

— « نعم .. كابوس أراه في كل ليلة ... » .

هاهي ذي تلك الحمقاء تحسب — كأكثر الناس — أن الكابوس يزورها بسبب أكلها الثوم في العشاء ! تحسبه بلاهة صاعقة شفافة قادرًا على التنبؤ .. وماذا رأيت يا (هويدا) هتم بخصوص في هذا الكابوس المزعوم ... ؟

— « رأيتك مسرعًا إلى الخلاء ... ! » .

— « لا بأس .. لقد رأيت نفسي في كوابيس أسوأ ... » .

— « ... وكانت الثعالب تنهش جثتك ... ! » .

— « هذا هو التجديد الحق ... ! » .

اتسعت عيناها رعبًا ووضعت كفها على ساعدي .. وفي توسل همست :

— « اسخر مني كما تشاء ولكن هذا الحلم .. أرجوك ... » .

كنت أشكرها على لطفها لولا أنها أرهقت وعجلت للسير !

— « ماذا سيقول الناس عني إذا مات خطيبي الثاني مثله ؟ .. لا أريد أن يتهمني الناس بالنحس ! ... » .

لم أرد عليها لأنني كنت أرمق في شرود فتاة صغيرة تقف في أحد مداخل البنايات .. كانت ترتدي قميص نوم أبيض طويلاً وشعرها الأسود ينساب على كتفيها ... تحدقني منتظرة بشيء ما لا أذكر ما هو بالضبط ...

* * *

٢ – الماضي يصحو ..

أنهيت جولتي في العنابر مع الميداني ممتقع الوجه أحمر الأذنين – نسيت اسمه للأسف – الذي يحاول أن يداري أخطاءه قدر الإمكان ، لكنني كنت أعرف جيدًا مواضع هذه الأخطاء لأنني كنت أرتكبها في سنه .. !

بالطبع لم يفحص براز مريضة فقر الدم بحثًا عن دم مهضوم .. ناسيًا – أو متناسيًا – أن سبب فقر الدم قد يكون نزفًا بالقناة الهضمية .. ، وبالطبع لم يفحص نخاع الطفل المصاب بنزف الجلد ناسيًا – أو متناسيًا – أن سرطان الدم احتمال وارد ...

شعرت أنني على وشك الانفجار من الغباء المستبد فيهما حين انتهى لوجهي له .. وأنهيت جولتي عائدًا لمكتبي ...

وجلست أرشف القهوة وأتصفح الرسائل التي وصلتني ...

وكانت – كالعادة – رسائل من أشخاص يطلبون مالًا .. أو يتوعدونني بخراب بيتي .. أو من شركات أدوية تعتذر

عن عدم قدرتها على تحقيق شيء طلبته منها ونسيتُ كنهه تمامًا .. ، ثمة خطاب من (جوستاف نيكولسكو) الصحفي الروماني يتحدث عن المذءوبين ويقول إن هناك قرى أخرى يبدو أنها تعاني منهم حقًا ، وخطاب من (هاري شلتون) يذكرني برحلة (جامايكا) الغريبة .. ويدعوني إلى زيارة (تاهيتي) لنعرف المزيد من أسرار الـ (فودو) ...

لقد مات الماضي يا رفاق .. لن تعودوا ذلك أبدًا ؟..

كان هناك خطاب أخير لم أدر من هو مرسله .. لكن خاتم المظروف كان من (المنصورة) .. (المنصورة) أول حب في حياتي ..

بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق منسق .. كأنه خط امرأة أو خط رجل يملك أصابع امرأة ...

« الأخ العزيز د. (رفعت) :

تحية طيبة .. وبعد ...

أسعدني كثيرًا أن أقرأ سطورًا عنك في إحدى المجلات الأجنبية التي يملكها زوجي ، ولقد تعرفت الصورة فورًا . وقد تذكرت الماضي وحياتك هنا في (المنصورة) مع خالك رحمه الله .

وعلمنا خير (جيراننا) لنا (هكذا في الخطاب) ولم (نرى) منكم إلا كل خير . هناك مشكلة في حياتنا يا د. (رفعت) أعتقد أنها تمسك بشكل أو بآخر وأرجو أن تلبي دعوة زوجي (محمد أيوب) وهو مهندس معماري للحضور إلى (المنصورة) للقائنا ومعرفة المشكلة .

أما لماذا لم (نأتي) نحن فلأننا نعرف أنك غير متزوج وخفيف الحركة . ثم أن المشكلة عندنا هنا وليست عندك .

سلامي للأخوة (عماد) و (مدحت) و (عبير) إذا كنت تراهم . وعلى فكرة عنواني سهل جداً وهو (.....) لكن اتصل بنا بالتليفون قبل أن تأتي حتى نعد لك أكلة طيبة تعوض عظامك التي جفت من (طبيخ) العزاب . بالمناسبة رقم تليفوني هو (.....) .

وشكراً جزيلاً ..

أختك .. « إلهام السويفي »

ألقيت المظروف على المكتب وشرعت شارد الذهن أتأمل (تنورة) القهوة في الفنجان ...

(إلهام السويفي) ! .. يا لها من ذكريات ... صحيح أن الأسلوب ركيك ومليء بالأخطاء النحوية .. ولكن هل



بعد مراجعة فحصت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنثى منسق ..

تتوقع من (إلهام) أن تعرف أن المضاف إليه يُجر ولا يُنصب .. وأن تعرف أن الفعل المضارع الناقص يُجزم بحذف حرف العلة .. بل — والأدهى — أن كلمة (طبيخ) لا تنتسب للفصحى ؟!

غريب هذا ... !

كان هذا الجزء من ذاكرتي قد مات تمامًا .. وها هي ذي تذكرني بنفسها و (بالشلة) إياها .. و (عصام) و (مدحت) .. إلخ ... أولئك الذين لو شئت جاورتهم لما اختلف الأمر كثيرًا .. فالحقيقة المروعة هي أنني لم أر أكثرهم ولم أسمع اسم أكثرهم من ثلاثين سنة تقريبًا ..!... تخيل أنت أن رجلاً يصافحك في حماس مؤكدًا أنه الطبيب الذي أشرف على ولادتك ؟ .. فهل ستتذكر وجهه ؟ .. هل ستعرفه ؟.. بالطبع لا ...

كان موقفي ساعتها قريبًا من هذا ...

* * *

(المنصورة) حبي الأول ...

لقد ولدت في (الشرقية) لكنني عشت أجمل سني حياتي في (المنصورة) .. ولهذا لم أزل أحسب نفسي في عداد أبنائها ...

إن وطنك هو المكان الذي ارتديت فيه أول سروال طويل في حياتك .. ولعبت أول مباراة كرة قدم .. وسمعت أول قصيدة .. وكتبت أول خطاب حب .. وتلقيت أول (علقة) من معلمك أو خصومك في المدرسة .. وطنك هو المكان الذي ذهبت فيه للمسجد أول مرة وحدك .. وخلعت حذاءك متحديًا صديقك أن يقف جوارك لتريا أيكما أطول قامة .. . ووطنك هو أول مكان تمرغت على عشبه في صراع دام مع صديق لدود من أجل فتاة لا تعرف شيئًا عن كليكما ..!

لقد كان وطني هو (المنصورة) وسيظل كذلك ..

مشاهد عدة أسترجعها .. أبي المتوفى .. نحيب أمي وعبارة واحدة ترددها وهي تحرك رأسها يمينًا ويسارًا :

— « كيف أربيهم ؟.. كيف ؟ » .

ثم خالي (عبد الرحمن) يعانقها ويعانقني ويعانق شقيقتي (رفيقة) وأخي (رضا) والدمع في عينيه ، ويومها عرفت أن مصائرنا تحددت .. (رضا) أكبرنا سنًا سيظل في (كفر بدر) ليرعى الأسرة ويفلح الأرض ، وكذا (رفيقة) لأنها فتاة ويجب أن تظل جوار أمها .. ثم إن البيت في القرية لا يستقيم دون امرأة حتى ولو كانت طفلة .. . أما عني أنا ..

— وستسمعين كلامي يا (فاطمة) (ورفعت) ذكي
ويمكنه أن يفلح في الدراسة .. ربما صار طبيبا
أو مهندسا أو ضابطا .. وحرام أن تضيعي عليه فرصة
كهذه لمجرد أن يظل في حضنك .
— ولكنك لا تعرف .
— ستجيئون معي الى (المنصورة) ليعيش في
داري مع (عماد) و (منجد) و (عمرو) ليبقى
وأنتم في مثل سنه .. ثم إني خاله .. والخال والد
يا (فاطمة) لا تنسي هذا .
كان الاختيار صعبا لكنه محتوم .. ولم تمهلني أمي
أن استسلمت لرغبة خالي .. وكان الفراق مؤثرا لا
أنسى — كطفل لا يطاق — لم أكد أبتعد عشرين مترا عن
داري حتى جفت الدموع في مقلتي .. ونسيت كل شيء
عن (كفر بدر)
كانت (المنصورة) فاتنة منذ اللحظة الأولى ولم
أستطع أن أخفي انبهاري .. لا أنسى أنها أول ما رأيت
في حياتي من مدن
ومن خالي الأنيق — أو ربما هو ما رأيته — والأصدقاء
الجدد الذين دخلوا عالمي ودخلت عالمهم
والسنوات عدة — وحتى التحقت بالكلية — عشت في

وطبعا كنت ملتزما بزيارات قصيرة لـ (كفر بدر) مرة
أو مرتين في الشهر
هي سنوات عشر تلك التي عشتها هناك في
(المنصورة)
فقط بعض المغامرات الصغيرة كالفرار من المدرسة
الى السينما وتسلق سور فيلا .. وصيد الأسماك الفيلية
في نهاية الدرب القريبة
كنا نسكن في شارع صغير ضيق تزينه
الأشجار العجوز على الجانبين وكانت للشمس تزخرف
أرض هذا الشارع بالظلال طيلة ساعات النهار وطيلة
فصول العام .. بينما يزخرف جدرانه بسحالها
ورسوم ساذجة بالطباشير وسائح مباريات كرة القدم
المحلية بعض المحلق والطحر اللذين جعلا (رمسيس
الثاني) يزخرف جدران المعابد بانتصاراته
كانت الحياة تمضي .. وكنا سعداء
والآن دعني أعرفك بتلك الصورة
ما هذا الصغير النحيل العصبي بمنظاره السميك
الذي كسر إطاره وتم لحامه بالحرارة فهو أنت .. وكما
تلاحظون لم تتغير كثيرا سوى زحف الشيب على مقدمة
رأسي

أما هذين الطفلان الجميلان فهما (مدحت) و (عماد)
ابنا خالتي وهما – كما لابد أنك لاحظت – توءمان
الفتاة الأولى ذات الضفيرة والسن الناقصة هي
(عبير) ابنة خالتي ، وهي شيطانة صغيرة خبيثة
لا تكف عن الصراخ
أما الفتاة الثانية فهي (إلهام) صاحبة النظارة
وإذا نظرت للحظة إليها وجدت بسبب شعرها القصير
وارتدائها البنطال فاعلم أن الكثيرين ارتكبوا الخطأ ذاته
ثم كانوا يسمعون صوتها الرقيق فيدركون أنها طفلة
تصر أمها على معاملتها معاملة الـ (الإجرسون) التي
يترجمها (طه حسين) بـ (المسترجلة) ويترجمها
(العقاد) بـ (الغلامة) !
كنا نلتقي في الشارع بعد ساعات المدرسة أو في
أيام الصيف لنبدأ في لعب كرة القدم أو المساكة أو بيت
بيوت أخرى ثم ننسى كل شيء فننفصل كما نعود
بعدها لتلك الألعاب ...
وكانت طبقتنا واحدة هي طبقة أبناء الموظفين
(وهي طبقة محترمة في الثلاثينات) لهذا كان
التجانس تامًا
وكنا نتشاجر على الفور بينما سيدة الأشرار السبع

ومنعة (سبايدر) الشهيرة بلسم (إلهام) إذ ما كنت تلهم
صراخ الأطفال لتضحك من أجل رسمها هذا
كان (عماد) يقلص وجهه ويطلق أصواتًا غريبة
من حلقه محاولاً إبهارها وكان (مدحت) يثب على
ذراعيه ويمشي مقلوبًا وكنت أن أرسم وجوهها .
الخلاصة أن كلاً منا حاول أن يريها أفضل ما لديه من
صفات لكنها – وهذا طبيعي – لم ترَ في التوءمين
سوى نسخة مكررة لبعضهما ولا معنى لأن يهتم
بأحدهما دون الآخر . أما أنا فكنت الوحيد الذي لا شبيه
له لهذا لم تخف ميلها نحوي خاصة وأنني أقربهم سنًا
لها وموضوع رقائق البرق جعلني – في رأيها – عاقلاً
لطيفًا عركته الحياة وذلك من التجارب ما لم يملكه
هؤلاء الصغار ؟
هكذا مرت الأيام
ثم لا أذكر تحديدًا متى ذات يوم
متى تفككت هذه المجموعة ؟ لا أدري لكن هناك
لحظة ما كان يجب أن نلتقي ولم تعد الفتاتان معًا
في نفس المدرسة ، ولم نعد نرى (إلهام) تكلما كلنا
إن قابلناها مصادفة وجدنا أنها صارت فتاة أخرى حتى
شعرها صار طويلاً وكفت عن ارتداء البنطال ، وكانت

تطرق بعينيها للأرض وتحمر وجنتيها معلنة أنها
لا ترغب في تبادل الحديث في الشارع .. أو – أحيانا –
تهز رأسها بتحية عابرة لفترة لا أود فيها

حتى في دار خالتي صار هناك نوع من الحصار حول
(عبير) .. ولم أعد قادرا على رؤيتها في كل وقت
ولا يطلبون فرضها كما اعتدت في طفولتي .. وصار
لعوامل أكثر تحفظا في الكلام عنها

ونظرت للمرآة لأرى ما تبدل

فوجدت (رفعت) آخر ينظر لي .. عيناه الامتنان
والزغب يملأ شفته العليا حتى خيل لي أنه شارب يمكن
إزالته بإصبعي

لكنه لم يزل

لقد كبرت

كنت أصرخ وأبكي .. أي كل طفل يصرخ أن يصير
رجلا .. لكني مختلف عن الآخرين .. إنني مستعد تماما
للتخلي عن هذا الشرف مقابل أن أعود لبراءة وصفاء
الماضي .. ليوم واحد فقط

لماذا امتلأت حياتي بالجدران

وأدركت – في رعب – أن هذه الرجولة ستكون
قاسية حقا

* * *

... للتعريف .

بعد بلوغي ... في أنني كنت أكلم نفسي وأردد
حوارات ألفتها في طفولتي .. وأضحك وأطلب استجابة
بالفعل لأشخاص لا وجود لهم ؟

لقد عثرت على (الهدم) بعد كل هذه الأعوام .. وبعد
أن بدأت الجدران العملاقة حولي تبلى وتتآكل .. وخلف
سور الجدار الأول وجدت هي تلك الدمية اللعينة
وقررت أن تكتب لي ..

تلك الدمية التي وقعت في يدي (شابيك) وجعلتها
تلعب معي لعبة (ميدوسا) و (رسوم) وجعلته
يلعب ... تشريح مومياء الفرعون

لو كنت ثريا لاشتريت كل نسخ هذه المجلة وأحرقتها
هذه ... وطردت من الفخر بصورتي البديعة
المنشورة بها . ولم يعد هناك سوى نقع هواتير الشهرة
والقلق .

لماذا لا أنسى دعوتها ؟ .. إن (المسحورة) هي
قطعة من روحي ، ولا بأس من أن يزور المرء
الموضع الذي فرق فيه روحه قبل أن يتزوج ويضيع
للأبد

كنت قد وصلت لداري ..

ودون أن أتردد ... إصبعي للقرص للهاتف
وطلبت رقما ما

٣ — أسطورة البيت ..

كنت قلقا فى أثناء ذهابى للموعد المنشود

لقد تركت (المنصورة) منذ أعوام عديدة ، بعد التحاقى بكلية الطب فى (القاهرة) ووفاة خالى .. وبعد انتهاء واجب العزاء رحلت ولم أعد بعدها أبدا .. حيث تهت فى حياة القاهرة حتى أننى لم أحضر زفاف (عبير) ولا زفاف أخويها برغم أننى تلقيت الدعوة وبرغم أن (مدحت) زارنى فى دارى أكثر من مرة

لقد مزق رحيل خالى حبلا متينا كان يربط بيننا .. كأننا سفن تمزقت حبال مراسيها فتضيع فى البحر الواسع ولا تعود للميناء أبدا

لقد عرفت أن (إلهام) تزوجت وتعيش فى مكان آخر بالمنصورة ، وأن أولاد خالى لم يروها منذ أعوام طويلة ، عرفت كذلك أن كل شىء قد تبدل فى المدينة عما كان فى الثلاثينيات السعيدة

لهذا .. شعرت بالرهبة والقلق

خشية ألا أعرف المكان .. وخشية ألا يعرفنى المكان

* * *

وبلغت مدخل البناية الأنيقة العتيقة صاعدا إلى الطابق الثانى لأقرع الجرس وأتنحنح

هو ذا الباب يفتح عن وجه وقور أشيب الشعر كث الشارب ، وخلفه لمحت امرأة بدينة بشعة المنظر تبتسم لى فى مودة غير عادية

— « أنا .... »

قاطعنى صوتها فى مرح من خلف كتف زوجها

— « أنت لم تتغير يا دكتور (رفعت) !! »

رحب بى الرجل فى مودة — وبيد ثابتة [illegible] —
وقال باحترام

— « مهندس (محمد أيوب) .. مرحبا بك .. »

ثم دعانى للدخول

كان الأثاث أنيقا والأرض مكسوة بسجاد فاخر .. وثمة رائحة عطرة فى الجو توحى لى بأنهم قاموا برش مستحضر ما تحسبا لقدومى .. وتوقعت أننى [illegible] أنهم استعدوا لزيارتى إلى حد كبير .. فالأناقة والنظافة العامة توحيان بجهد غير عاديين .. ومن المستحيل أن يظل (المزركش) لامعا إلى الأبد فى بيت تعيش به أسرة

حتى (إلهام) بدا واضحا أنها تكلفت فوق استطاعتها

وجبرت روحها على ركن ، بذلة أنيقة ، وبرغم هذا لم
تستطع أن تخفي ما شعرت به من غم إزاء ما طرأ على
جمالها القديم من تبدل ... هل حقا كبرت إلى هذا الحد
المفزع ؟ إذن كيف أبدو أنا ... أنا الذي لم يتهمه أحد
بالجمال .. ؟

أنا أعرف أن الزمن قاس ، لكنني لم أتصور مدى هذه
القسوة !.

وجلست نرشف الشاي ونأكل قطع الجاتوه مرغما
على حين أخذت تسألني عن أحوالي وعن السر في عدم
زواجي (ذلك الموضوع المحبب لدى الناس جميعا
ولا يبدو أن عندهم غيره) ثم عن عملي ... ثم أن
لمحت خاتم الخطبة في خنصري الأيمن

دخل الغرفة طفلان مرحان يكتسي الشقاوة من
ملامحهم قالت لي إنهما (مجدى) و (محمود) ... إنهما
تشرفنا ... هل أنتما مجتهدان في الدراسة ؟. إن (مجدى)
يحفظ الأرقام من واحد إلى عشرة

تراجعت للوراء ، رسمت ابتسامة بلهاء على
وجهي ... وتساءلت غير مصدق

— « هل تقولين هذا لتثيري دهشتي فقط ؟ »

— « بل هو الواقع »

ووقف الطفل السخيف مصدره وشرع يتلو الأرقام
من واحد لعشرة ... ثم أخذ يدور بوجهه يمينا ويسارا في فخر
مبتذل ... قلت « أنت شاطر يا أخ (مجدى) ... ليس
هذا بالمستغرب ... فإن (محمود) يجيد غناء أغاني (عبد
الحليم حافظ)

متى ينتهي هذا الهراء ؟!

وهنا دخلت خادمة صغيرة مصحوبة بطبق الجاتوه عونا
إلى مائدة الطعام فتبعتها ... وطلبت الخروج إلى الحمام
لأغسل يدي ووجهي ، ثم جلست على المائدة المزدحمة
المزدانة باللحوم وعشرات الأنواع من الخضر
والسلاطة و ... و ... قلت لها في حرج

— « يبدو أنك تتوقعين الجيش البريطاني أن يتغدى
معي ! »

ضحكت في مرح وهي تصب لي الحساء

— « بل هكذا نأكل كل يوم »

يا سلام ! ... تريد أن تقنعني أن هناك بيتا قادرا على
إعداد هذا الطعام يوميا فضلا عن التهامه ! ... إنه
التفاخر الأخرق الذي لا مبرر له

قالت لي وهي تأكل في نهم

— « هل تعرف بيت (الصحراوي) ؟ »

توقفت عن المضغ ونظرت نحوها في حيرة

* * *

ــ « ما هذا البيت يا (عماد) ؟ »

ــ « إنه بيت (الخضراوي) يا (رفعت) ؟ »

ــ « لاحظت أنكم تتحدثون عنه في أثناء اللعب »

ــ « هكذا نصحنا بابا »

قال الآخر ثانيًا

فالبيت ــ الشبيه بقلعة من طابقين ــ كان يقف على حافة النيل يهيب ويتكاثف شجيرات الغجر حوله فيجعله أشبه بوحش أسطوري ينتظر ، وفي أعماقي شعرت شعورًا شهيًا بالرغبة في المجهول والخوف منه

ــ « فلندخل .. »

صاح الآخرون في صوت واحد :

ــ « سيعرف بابا ويعاقب »

ــ « إذن فلنقترب منه أكثر »

لم أكن أجسر على الاقتراب وحدي ولكنني مصحوبًا بصحبة ، ولي مؤذية ــ كقطعة قطعة صغيرة تتسلل لمرة ــ زحفنا نحو البيت ، أذكر هواء الفجر الندي المشبع بالمازوت (ولا أدري مصدره) وصوت الأعشاب تتهشم تحت أقدامنا والعدو يكبر ويكبر ويكبر ..

لم يكن ثمة مخلوق في المنطقة سوانا . ولكن السور الحديدي الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تنبو منه ، ومن خلفه تمتد غابة ــ أعني حديقة ــ متشابكة الغصون والأوراق ، والأشجار لا أدري اسمها يلتف ــ كأنها تتلوى لما ــ حول بعضها البعض

قالت لي (إلهام) الصغيرة وترتجف في كفي وكان الفتى الآخر يرتجف في كف (عماد) الذي كان قائد الدائرة ، وفي أعماقنا دوى صوت يهيب بنا مرارًا أن نبتعد يجب أن نبتعد لقد اقتربنا إلى حد ما يكفي وحان الوقت كي نهرب قبل أن نرى ما نخشاه

وهنا حدث شيء غريب

* * *

ــ « لكنك لا تأكل يا د (رفعت) ؟ »

دوى صوت الزوجة يهيب بي ألا أغرق في شرود الذهن

رفعت الملعقة إلى فمي وقلت مواصلا المضغ

ــ « بيت (الخضراوي) ؟ نعم أذكره طبعًا »

قالت وهي تصفع أحد الطفلين كي يكف عن سكب الحساء على المفرش وتمنع الآخر كي يكف عن إعادة ما في فمه إلى الطبق

— ولكنك تعرف أنك لم تعد إليه قط منذ ذلك اليوم ..

— وهممم ..؟

— يا حسن .. لقد عادت (شيرين) من جديد !

سقط كوب الماء من يدي على مفرش المائدة ، وشرعت في ذهول أرمق بقعة الماء تتسع تدريجيا

* * *

ظلت البوابة الصدئة مواربة غير مغلقة

ومن ورائها شعرت بكل رهبة .. وحيدة .. رقيقة نحيلة كزهرة .. فتاة صغيرة في عمر ست سنوات ترتدي قميص نوم أبيض طويلا يصل لقدميها .. وقد عقدت شريطة تتدلى على شكل (فيونكة) صغيرة .. كان شعرها أسود فاحما كالليل ينسدل حتى خصرها .. أما عيناها فكانتا غريبتين .. لم أكن قد رأيت عينين رماديتين في حياتي ، ولقد أصابني الذهول وأنا أرى فتاة تحمل في عينيها سحبا من سماء الشمال شديدة الزرقة والصفاء والشفافية .. حتى إنني ساءلت نفسي

— هل تبصر كالسحب .. كيف ترى بهاتين المقلتين الشفافتين ؟

وقفت — كمن أصابه مس كهربي — على البوابة



وكان السور خشبيا تحيط عيدانه بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء والزرقاء ونباتات طحلبية أخرى مثله

عاجزين عن التفكير .. اما هي فقد فتحت البوابة لتقفز على وجهها ورسمت أعذب ابتسامة رأيناها في حياتنا .
ثم سمعنا أجراس الملائكة تقول :
— « تعالوا .. لا تخافوا .. هذا هو بيتي » .
كان (محمد) أول من استعاد القدرة على النطق فقال متلعثماً :
— « هل .. هل أنت بنت الخضراوي ؟ » .
لم ترد .. بل أشرقت لنا ببسمة .. ومدت يدها البلورية تداعب (عبير) وتلمس على خدها :
— « ما أجملك ! .. ما اسمك يا حلوة ؟ » .
— « (عبير ..) (عبير) .. » .
— « اسم جميل .. وأنا (شيراز) .. صديقتكم » .
— « اسمك غريب لكنه جميل يا (شيراز) » .
ثم إن (شيراز) عانقت (إلهام) وهمست في رقة :
— « تعالوا نلعب كالأولاد ؟ لكن — هل تريدين رأيي ؟ .. — اعتقد انك هكذا أجمل » .
ثم صافحتني .. لن أنسى هذه اليد الباردة الشفافة البلورية ما حييت .. تمنيت عدم الضغط حتى لا أسمع صوت الـ (كراشش) الذي يخشاه !
وفي مهوب تخلف الحديقة معها نجري قدامنا

خلف تلفحنا عبر الأشجار متجهة إلى البيت ، وفرحت البيت عدة مرات بطرقة على شكل قصبة بيد ، لتفتح الباب عن خادم نوبي .. ثم ذهب تخلت ونحن خلفها إلى مدخل البيت تحفه المرايا والتحف .
الغريب أن نسيج العنكبوت كان يغلف كل شيء .. فهل هم لا يعلمون .. يبالون به هذا النسيج ؟

* * *

— « أسف جداً .. لكنني لا أفهم كيف حدث ؟ » .
قالت (إلهام) وهي تضع مشطة على طرف المائدة أول الليل الذي حدث :
— « أمس مررت بالصدفة — في الصباح الباكر — جوار البيت فوجدتها واقفة جوار البوابة .. وكأنها تنتظر لي ! » .
— « غريب هذا .. » .
— « لماذا لا تقول يا د . (رفعت) ؟ » .
— « لقد شبعت تماماً .. ولكن .. هل حدثتها ؟ » .
— « بالطبع لا .. لم أجرؤ على ذلك » .
— « ولماذا ؟ بعد هذه السنوات .. هل تزوجت ؟ »
— « مستحيل أن تكون قد تزوجت يا د . (رفعت) » .
سألتها وأنا أشعل سيجارة

— « وهكذا ؟ لقد كبرت فصارت عروساً » قائلة

قالت في برود وهي تصب بعض العصير في عمق قلبها

— « ومن (شيرين) بنت (رفعت) — بعد كل هذه الاعوام — لم تزل طفلة !! »

* * *

٤ ـ الفتاة التي لم تكبر ..

— «ماذا؟ .. ماذا تعني بالضبط؟»

— «أعني .. أن الفتاة ظلت طفلة كما عرفتها».

لقد دخل السهرة وبداخله شيء من شرود .. ثم سألت

— «تعني أنها مصابة بمتلازمة هرمونية؟ .. تخلف في الغدد مثلاً؟»

ضحكت في سخرية وهمست

— «ألا تنسى أنك طبيب أبدًا؟ .. أنت تفكر بتلك الأحلام وتلك الغدد .. وعموماً مثلك تعرف أن الأمر أخطر من هذا»

— «تعلمين ..»

نظرت إلى عيني زوجها ثم إلى عيني .. وهمست ،

— «أعني أن هذه الفتاة لم تكن طبيعية ..»

* * *

نحن أيضا شعرنا بذلك ونحن نجتاز مع الفتاة صالة دارها

العنكبوت في كل مكان وكذلك جو العتمة المخيفة
وكانت هناك امرأة تقف جوار مائدة طعام عملاقة
امرأة شعرها بلون الجليد ولها وجه رقيق ملىء
بالتجاعيد (ليس من دين الأطفال ملاحظة الشيب لكنني
أعتقد أن شيبها كانت فاخرة) وما أن لمحتنا حتى
هش وجهها وبش وتقدمت نحونا
— « أصدقاء (شيرر *) مرحبا بكم يا أصدقاء
ليس هم أبنائي ومشكلتي هي أنها لا تجد أصدقاء
من سنها ما أسماؤكم يا نجيبي ؟ »
— « (رأفت) »
— « (عبير) »
— « (إلهام) »
إلخ ثم اتجه لجلستنا على المائدة وقدمت لنا
(جيلي) أزرق اللون شهي المذاق إلى حد غير عادي .
وشرعت تسألنا عن أهلنا ومدارسنا وأصدقائنا ثم
سألتني
— « لماذا لم نركم من قبل ؟ »
تنحنحت ويمرح قلب
— « الواقع أننا »
ابتسمت في رقة وربتت على كتفي

— « لا تقل دعني نخمن عندك أن أهلكم يحرمون
عليكم المرور هنا »
— « الواقع »
— « فهمت ! لا داعي أن تخبروهم بشيء
ولكن كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلى من وقت
لآخر »
وقدمت لي طبقا مليئا بالشكليت (الفراولة)

* * *

أنهيت التهام الشيكولا الذي قدمته لي (إلهام) وقالت :
— « الواقع أن كل شيء كان غريبا هناك .. الـ (جيلي)
الأزرق والشيكولا في (موسم) ورائحة الجو »
— « بالذات رائحة الجو »
ثم نظرت إلى نيتها وقالت
— « (مجدي) إذا كنت قد فرغت من طعامك فلنعد
لمغامرتك »

* * *

— « نعم فرغت من طعامي ويجب أن نعود »
فتناها في حرج للأم في قاعة إلى الباب الخارجي
ومعي طلتها تحصده

وفتحت لنا البوابة لعبور ذلك الممر الأخير

— « مع السلامة يا أحباب »

— « مع السلامة »

وخرجنا لا نلوي على شيء .. لكننا كنا محبوسي الأنفاس مبهورين بهذا العالم الغامض الذي لم نعرفه من قبل .

لم نتكلم ولم نتبادل الآراء لكننا عرفنا جميعا أننا سنعود وأننا لن نحدث الكبار عن شيء .. أما (شيراز) فظل مذاقها في الحلوق وأوراقها كعكة (شليك) حمراء باردة تتلألأ حبيبات السكر على سطحها

وقبل أن نبتعد عن البيت صاحت (عبير) في حيرة وهي تشير إليه

— « هل لاحظتم شيئا غريبا ؟ »

— « ماذا تعنين ؟ »

— « إنها ساعات النهار الأولى والطيور تتزاحم فوق الأشجار لكنني لا أرى طائرا واحدا فوق أغصان هذا البيت ! »

* * *

— « هل تتذكر فرار الطيور بعيدا عن حديقتهم ؟ »

— « والقطط الصغيرة »

قال فاروق وهو يضع الأطباق بعضها فوق البعض

— « الواقع أنكم كنتم شديدي الجرأة .. لقد فعلت الطبيعة كل ما تستطيع كي تحذركم من كل ما يجري في هذا البيت الغريب .. لكنكم لم تفهموا »

* * *

نعم لم نفهم

وفي الأيام التالية صرنا نذهب للبيت .. لنعيش فيه النهار ولحظاتنا بعد الغروب . وكانت (شيراز) دائما معنا وظلت خلال الزيارة الممتعة

وكعادتها نضحك ونلتهم الفطائر وتلونا ندخل .

ويبدأ الحلم

لعب لا حصر لها .. المسابقة . لعبة الأطفال .. صيد الفراشات الصغيرة (لم يكن يعجبه سوى الصبيان بطبيعة الحال) .. لعبة الكرة .. تسلق الأشجار .. وبعد ساعتين كنا نفارق البيت غارقين في العرق تختلج السعادة في أعماقنا . نتمنى لو نموت فلا نبعث إلا حين يأتي موعد الغد

* * *

— « (شيراز) .. أنا أحبك ! »

— « (رأفت) .. كف عن هذا وإلا ضربتك حالا »

— « سأموت إذا ما تخليت أنت عني ذلك ! »

— « إذن .. مت ! »

فأمسك بقلبي وألتوي ألما ثم أسقط على الأرض فوق الأغصان المهشمة والأوراق الجافة ... صوت التهشم

— « ها قد مت كما أردت ... والآن هل تحبيني ؟ »

فتركل جسدي الممدد على الأرض في دلال وتصيح

— « كاذب وعنيد ! ... وبدلا عن (إلهيم) ؟ »

أصيح ولكنا أنهض ... حجري من جراء أشعة الشمس

— « لم تعد تحبيني إذن ... »

— « سأظهرها ... ! »

عندئذ أنسى دور العاشق اللاهي الذي ألعبه وأنهض ملوحا بقبضتي

— « حاولي أن تلوي لها شيئا وسأكسر رقبتك ! »

حينها تكون قد تركتني وانطلقت تجري بين الأشجار واضعة كفيها على فمها لتكتم الصوت ... وهي تصيح

— « إنسي يا (إلهام) ! ... (رفعت) يقول ... »

— « لتفرسي يا مجنونه ! »

وأكون قد لحقت بها وأمسكت بها ... بعرقلتها وجذبته

بقوة فيختل توازنها وتسقط على رأسها سقطة قوية كاد فؤادي ينخلع لها ... الركبة دون جهد أنها — والأبعد — جرحت جرحا بليغا وسيكون موقفي عسيرا أمام عقلها والدم يغش ... وأمامه

سأعتنيها على الخصوص ولكنا أعتذر بضعف

— « سامحيني ! ... كنت أمزح ... ! »

الصمت والألم في لحظة العينين الزرقاوين كأنما كأنني فيهما حجر ... ، تمسك بجبهتها ولا ترد ... تكلمي أرى الجرح ... مسم يشمل جلد الجبين الصغير والغريب هنا أني لم أر قطرة دم واحدة ! ... ولا قطرة عالقا الجرح في قطعة من الشمع

— « إنه الجرح كبير ... يجب أن نذهبي لمستشفى حيث ... ؟ »

— « لا ... »

قلتها في حزم وصرامة ... ثم سكبت بعض خصلات الليل الأسود فوق الجرح ونهضت في كبرياء وأنا ورحنا ...

كان الجرح يمضي من توجيه الأسئلة ، أسئلة لا بد منها عن الجرح الذي لا ينزف دما ... لقد التلمست القمة كلها وعلت تحاول التصبب رصاصه

لكني أرى الجرح .. والجرح لم يندمل خلف أذني اليسرى

والغريب أنه لم تسل منه قطرة دم واحدة ؟

وتوجهت بها نحو .. لا تخبر أمها قبل المغيب

ـ أنت جبان .

ـ نعم جبان جدا .. ولكن ليس خوفا من العقاب بل

خوفا من الجرح .

ضحكت في دلال وهزت شعرها للخلف .. قائلة

ـ أنت مجيد تبرير عيوبك .. !

غريب هذا .. ؟

لم أكن في هذه المرة قادرا على رؤية الجرح .

لقد سقطت خصلات الشعر التي تداريه .. وها هو ذا

الموضع أمام عيني .. لكني لا أرى الجرح .. لا أراه

وأصمم على ذلك

* * *

قالت (فهيمة) وهي تصب الشاي

ـ أكثر من مرة جرحت الأشواك يدها أمامي ولم

تنزف .

كنت في دهشة

ـ لاحظت ذلك أنت الأخرى ؟ .. ولم لم تخبريني ؟!

ـ إن الأطفال يرون أشياء كثيرة لكنهم لا يحاولون

تفسيرها .

صوبت قدح الشاي نحو شفتي .. ووضعته أمامي

المفضل أن يكون العشاء في كوب لكني لم أجرؤ على طلب ذلك منها

قال زوجها وهو يتناول قدح الشاي الخاص به

تقول , أقدم ! إنك كنت مخطئا في حب (شيراز) ..

صمتت (إلهام) وهي ترفع حاجبها الأيسر في تهكم :

— وليس هو الخطأ ... بل و (سماح) و (عماد) كذلك ..!!

* * *

آية الآلام عرفت القلب الصغير — قلب (إلهام) — وهي تلقت عرشها يتحطم

لم تعد ملكة (سبأ) ولا سيدة الأقمار السبع ولم يعد الأولاد الثلاثة يتصارعون من أجلها ولم يعد أحد يهتم بمعارضتها على تسلق الأشجار أو عبور الطرق الضيقة ومنذ شهرين لم يسط أحد على الفيلا المجاورة ليسرق لها وردة حمراء من الحديقة

لقد احتلت الصبية (شيراز) كل جوارحهم ولم يعد تتقاتل إلا من أجلها ولا يسرح الأمن إليها ولا يضحك إلا معها

كل الورد الأحمر وقطع (الكراميل) والحلوى صارت لها وحدها حتى حرص (عماد) المخلوع

[illegible] لتحتفظ به لنفسها هي وحدها ولم يرد أحد [illegible] يوسعانها

في القلب الصغير يطفح بالألم وبالغضب وبالحقد [illegible] كانت (إلهام) [illegible]

ولم تكن الفترة على الحقد على (شيراز) لأنها كانت [illegible] في كل شيء بشعب الضحك التي تركتها وشعرها [illegible] والعين الناعسة التي تظهر إذا ابتسمت

القلب الصغير يطفح بالغيرة والحقد الأسود

إلى أن جاء اليوم الذي انفجرت فيه

لقد انتهت لعب ([illegible]) على الأرض لعب الثلاثة [illegible] (شيراز) وكانت (عبير) ترقب الموقف في خبث [illegible] سمعنا صرخة ... صرخة روح تحترق

— أنتم جميعا تحبون من أجلها ... لا أحد يريدني لم يعد أحد يحب بي ..

هذا صرخت (إلهام) وهي تركل الأرض مبعثرة [illegible] (السيجيه) التي رسمتها بالطباشير ... ثم [illegible] والدمع يترقرق في عينيها

— تبكي ... سأعود لذلك ولن أكون هنا أبدا ..!

وليس هذا كل شيء

— « وسأخبر كل الناس أنكم ستأتون هنا ؟ »

وأنى لي أن أفهم حيث كانت قد قررت جارية من المجهول .. صورة مصغرة للانتقام .. (سلوى) الطفلة ذات العينين تهرول في الطرقات عازمة على خراب بيتنا .. !

* * *

— « كانت غيوراً جداً والحق يقال »

قالت (إلهام) وهي تبتسم في مرح

— كانت (قوية) جداً .. هذا هو كل شيء »

— « وجلبت الويل على رءوسنا »

— « علي وعلى أعدائي ! »

رشفت جرعة من الشاي ولم أسمع صوت خالي يلفظها بعد أن فرغ هو الآخر — من رشف الشاي

* * *

وقف — أنا و (عماد) و (مدحت) و (عبير) — صغيري الآذان أمام خالي بانتظار كلمته الأخيرة .. بينما يتبادل وزوجته نظرات ذات معنى

ثم قال في تؤدة :

— « عرفت من أم (إلهام) أنكم تذهبون إلى بيت (الخضراوي) .. ألم أنهكم عن ذلك ؟ »

منذ الصمت الثقيل ليصبح سؤال

— « كم مرة ذهبتم هناك ؟ »

— « ... »

— « كم مرة ؟ ثلاث مرات ؟ .. أربعاً ؟ .. عشراً ؟ »

— « ... »

— « أكثر من عشر مرات ؟! »

واحمر وجهه كعرف الديك — وأوشك على الكلام لولا أن تدخلت زوج خالي

— « لحظة .. ماذا رأيتم هناك ؟ »

بمرح شديد وارتباك بدأنا نحكي كل شيء .. (شجرة) والأم والطعام المسموم وعمر (إلهام) .. إلخ .. إلخ

كان الاهتمام يتزايد على وجه خالي ، والرعب يمحو في سحنة زوجته ، وثمة نظرة جانبية ذات معنى يتبادلانها .. ثم عادا ينظران لنا

نهض خالي — بعد ما أنهينا القصة — في النهاية انفجر في الضحك مذهب الأطراف وعاد به ليجلسه على مائدة الطعام .. وسألنا

— « ومن هذه ؟ »

— « صحصح .. »

— « إني أقسمت عليه إنكم لن تعودوا إلى هذا البيت ما دمت أنا حيا »

- .. ولكن ؟

- لا لكن .. انكم لا تعرفون ربع ما عرفته نحو
الكثير عن ذلك البيت .. واقسم بهذا الكتاب الكريم ان
من لا يقسم منكم على ما أقول سوف لا تسمع عنه
لم تكن لماما حيلة
قصصنا .. والدمع في عيوننا .. وثمة شعور عام انا
لقد غنا (شهرزاد) وخلفها .. وأدركنا أن حبكت من
دورها سيكون أقسى وأخطر مثلا

* * *

إلى هنا والقصة تتوالى عليه
لكن الأقدار تتدخل هنا وهناك
ولا يمكن لسر أن يظل في قبره
لقد جاء اليوم الذي عرفنا فيه سر قلق خالي وذعر
زوجته
وكلاهما محق
فقد توفيت زوجته (الحصراوي) واسمه (شهرزاد)
وكل هذه البيوت في حلب قصص عام ١٩٢٦
وبالتحديد .. قبل أن ندخل هذا البيت بخمسة عشر
عاما

* * *

● ــ لماذا عادت ؟ ..

قال لي زوج (إلهام)

ــ « ألم تشعر بالخوف ؟ »

نظرت نحو (إلهام) نظرة ذات معنى .. ثم قلنا في صوت واحد

ــ « بلى .. شعرنا به بعض الوقت ثم نسينا الأمر برمته .. »

أردف هو في صوت هامس

ــ « إن عواطف الأطفال سطحية جدا ولا تدوم أكثر من بضعة أسابيع .. »

ــ « ربما كانت دهشتنا أكبر بمراحل من خوف .. »

ساد الصمت بضع دقائق .. ثم جمعي رفعت عينيها متوجسة نحو (إلهام) .. حتى هذه اللحظة لم أفهم كنه المشكلة .. هي مجرد ذكرى مرعبة وانتهت ولم يعد هناك ما يدعو للقلق

ربما رأت (شيريل) .. وربما فوجئت بكونها لم تكبر .. فما الغريب في كل هذا ؟ .. لقد تكيفنا تماما من

إن (شيراز) شبح … شبح من عالم الطفولة لا يراه
سوى الأطفال ويخشاه الكبار كثيرا … فما هو الجديد
إذن ؟

قالت (إلهام) وهي تنظر للأرض [illegible]

— « كانت الأمور مستقرة تماما على ما عهدناه … ثم
بدأت أشياء غريبة تحدث … »

— « غريبة … ؟ »

لعلك شاهدتها بنفسك … [illegible]

— « أعتقد أن (شيراز) قد [illegible] هنا ! »

* * *

— « (مجدي) ! … تعال وحدك [illegible] ما رأيته ! »

اللعنة ! … هل يجب علي أن أسمع بهذا الوغد
الصغير مرة أخرى ؟..

ها هو ذا قادم مسرعا [illegible] وقد بدا عليه [illegible]
[illegible] لأهميته

سأل الأب ابنه وهو [illegible] سرور

— « ماذا رأيت الأسبوع الماضي ؟ »

— « رأيت الأسد في التليفزيون »

— « ليس هذا يا مجدي … أعني ما رأيته في الشارع
المجاور ؟ »

[illegible] … [illegible]

— « رأيت فتاة »

— « وكيف كان شكلها ؟ »

رفع الطفل يده إلى رأسه محاكيا شعر الأنثى

— « [illegible] جدا … شعرها [illegible] … و[illegible]
[illegible] »

نظرت لي (إلهام) نظرة عابرة [illegible] —
(لا يذكرك هذا الوصف بشيء ؟) ثم طلبت منه أن
يستمر

— « كانت ترتدي قميص نوم أبيض … »

— « و … ؟ »

— « طلبت مني أن ألعب معها … فقلت لها [illegible] »

— « ولماذا ؟ »

اتسعت عيناه رعبا ورجع رأسه للوراء

— « لا أدري … خفت منها »

— « [illegible] … ولكن لماذا ؟ »

ضيق عينيه في توتر وقال :

— « ربما … لأنها لم تكن تترك ظلا على
الأرض … »

[illegible] نظرة حيرى … لكن (إلهام) لم تتوقف
عند هذه النقطة بل واصلت الاستجواب

— « وماذا قالت لك بعدها ؟ »
— « طلبت أن أنقل تحياتها لأمي ! »
عند هذا الحد وثبت (إلهام) في مقعدها وقد بدت على ملامحها سمات التفكر ... وهتفت :
— « هل رأيت ؟ ... إنها تتذكرك ... »
قلت في حيرة وأنا أشعل لفافة تبغ :
— « من هي ؟ »
— « (شيراز) طبعا ... لا أظنك بهذا الحمق ... »
حككت رأسي في شرود مغمغما :
— « الواقع يا (إلهام) أنني لا أجد الأمور بهذا الوضوح ... إن القصة كلها تبدو لي نوعا من الخلط ... »
— « بل هي واضحة كالشمس ... »
وضربت الطفل على ردفه بعنف لعصبيته ... ثم استطردت :
— « بعد كل هذه السنوات لم تزل الفتاة تستشعر الوحدة ... ولم تزل تبحث عن أصدقاء الطفولة ... أو — على الأقل — تبحث عن بقاياهم ... »
— « ألا ترين في هذا نوعا من المبالغة ؟ »
نهضت في تؤدة لتشعل المصباح الذي يتألق فوق رءوسنا ... والضوء الأبيض اللطيف يكشف الوجوه وقطع الأثاث ... وهمست :

— « (رفعت) ... يجب أن نبحث عن الآخرين ... »
— « الآخرين ؟ »
— « نعم ... أولاد عمك ... »
— « فكرة لا بأس بها ... ولكن لماذا ؟ »
— « يجب أن نعرف لماذا عادت (شيراز) ؟ وما الذي تطلبه منا ؟ »
قلتها وبسمت ابتسامة لم أفهم مغزاها ...

* * *

قلت لـ (شيراز) وأنا أتأمل مشهد الغروب :
— « (شيراز) ... أنا أخاف الغروب ... كأنني أرى مصرع الشمس ... »
لمع الضوء الأرجواني في لجتي عينيها الزرقاوين ... وهمست :
— « الشمس لا تموت عند الغروب يا (رفعت) ... بل تذهب لتنام في دارها بعيدا بعيدا ... »
كنت أرتجف كالورقة وخصلات شعرها الأسود تلمس أنفي ...
— « (شيراز) ... أنا خائف ... »
— خائف وأنا معك ؟! »
لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذي يتملكني نحوها ... لم أجرؤ أن أخبرها أنني خائف لأنها معي !

* * *



لم أستطع أن أصارحه بالشعور الغريب الذي ينتابني من أجله

لم أجرؤ أن أخبره أنني خائفة لأنه معي

وضعت إصبعي في قرص الهاتف وضغطت على [illegible] وكتفي لأتمكن من تقليب دفتر الأرقام الصغير

[illegible] الرقم ([illegible]) ٣ ١ ٤ ٢ ٥ ٦

صوت قرص الهاتف ثم صوت طفلة تتحدث بأسلوب الأطفال [illegible] ماذا تريد ؟ بابا ؟ ماذا تريد من بابا ؟ [illegible] ثم صوت رجل يضحك ويحاول [illegible] منها ليسألني في رسالة عن شخصي [illegible]

— ([illegible]) : أيها النذل المغرور ! أين ذهبت ؟

— لقد سمعت من ([illegible]) من عند ([illegible]) ، [illegible] ([illegible]) .

[illegible] في الهاتف [illegible] آلاف الأميال [illegible] ملتقيين [illegible] العنوان وطلبت منه أن يحضر ([illegible]) و ([illegible]) معه لأن هناك موضوعا [illegible] من مناقشته [illegible] التفصيل [illegible] ومن ثم وعدني بأن يحضر [illegible] وزوجته وزوجة [illegible] والأولاد جميعا .

— ([illegible]) [illegible] الموضوع جدي وخطير

وليس مجال تعارف لنادي الـ (روتاري).. حاولت أن
تلتقي أنت و(صفاء) و(عبير) فقط، على الأقل حتى
لا تصير شقة مضيفي.. »

— «ولكن.. »

ووضعت السماعة وهززت رأسي للزوج و(إلهام)
أن قد تم الاتفاق دون خسائر.. وسيكون موعدنا غدًا
المساء..

* * *

وكانت الأم تقطع لحمًا بسكين تتحسر لنا صحنها
عليها لتوزع عصير البرتقال لعصر الثلوج (**)
أكواب باردة كتكاثف بخار الماء على زجاجها.. فكنا
نرشفها في نهم وسرعتي.. تتكاثف قطرات العرق على
جبهتنا.. وتلهب البشرة

— «برتقال عصير لعصر وجسمي قرنفل».. لا يوجد
شيء واحد طبيعي في هذا البيت.. »

قالتها (إلهام) وهي تتناول كوبها في فتور

— «ولكن هذا هو ما يجعلنا إليه.. أليس كذلك؟»

— «بلى.. ولكن.. »

* * *

ولكن اللقاء كان حارًا في شقة (إلهام)

...اء على الأعداء.. لقد تبدلوا جميعًا لكن الماضي
... في عطائهم

... (صفاء) قد صار مهندسًا.. و(مدحت) محامٍ
(عبير) ربة بيت غير عاملة.. ازداد الترهل
...ها وازداد لحمها ضمور

وفي المساء بدأنا المناقشة

في همسة تعرفهم (إلهام) بحركات المشتركة
...حياة.. قصة (شيراز) وأمها والعلاقة التي
...تها لنا (إلهام) بقرائنها الشديدة

ثم إنها بدأت تحكي التطورات الأخيرة.. ورأيت
...ـب عليه في عينيه ما يدعوه للاعتقاد أن (شيراز)
...ت بحثت عنا

(عمر) كان أول من تكلم.. فصرخت في استهجان

— «عليك يا (إلهام) أرجوك.. لقد حاولت سنين
...ـعه.. وها أنجح لولاك.. »

وهز (مدحت) رأسه في استخفاف

— «لقد طلبت لقاءنا.. كي نتكلم الأمر أشد
لا.. »

... عن (صفاء) فكم بيت باعتراض معي.. ثم إنه
... رأسه محدقًا في قلق وهمس

— «لم نرد أن نخبركم كي لا تقولوا إنني معتوه
لكن ما دمتم تعرفون ذلك وتشعركوسي الرأي فإنني ...»
قلت له في غيظ :
— «عم تتحدث بالذات ؟»
ابتلع ريقه متحاشيا نظراتنا ... وغمغم :
— «عن (شيراز) بالطبع ... لقد رأيتها تمشي منذ خمسة أيام ...»
— «هكذا ؟ ... وهل دعتها لمشاطرتها اللعب ؟»
— «لكن هذا عسير ! ...»
ثم رفع عينيه إلى وجهي ... وأردف :
— «أقول إنني أعتقد أن الفتاة التي قابلتها كان لها ... هالات ... وكان لسانها مشقوقا كالأفاعي ... !»

* * *

٦ ـ الملاك المفترس ..

تربعت على الفراش مرتدية منامة (عماد) لأدخن سيجارتي الأخيرة (سيجارة ما قبل النوم وليس الموت طبعا) حين دخل (عماد) الحجرة ..

لما أن شاهد سحب الدخان حتى أخذ يلوح بيده في الهواء كمن يختنق .. وهتف وهو يسعل :

— «ماذا تقول في طبيب يدخن كالتربين الأرياف ؟»

— «طبيب المسلوق للسمع الذي لا أسمع غيره ... إنني شخص أنثى ضعيفة الإرادة مزعزع الشخصية مختل النفسية ... فهل هذا ما تريد قوله ؟»

— «بالحرف الواحد ... !»

— «لقد أرحتك من الثرثرة ... والآن هلم أخبرني بكل ما يدور بخلدك ...»

تربع على الفراش جواري وبدأ يشرح لي مخاوفه

كان الليل قد انتصف حين انتهى تحت الغطاء جواري

فأدركت في هلع أنه سيحلم معي على سبيل الترحيب .

إنه بيته فلن أجرؤ على أن أطرده من الحجرة لينام
في أي مكان آخر .. وزوجته تنام مع ابنه في الفراش
الآخر باعتبار هذا هو التنسيق الوحيد الممكن حتى
لا ينام أحد على الأرض ! .. وبعد قليل بدأ صوت
شخيره المزعج فأيقنت أنه لا نوم لي في هذه الليلة
السوداء

* * *

تك تك ! تك تك ! خ خ خ خ خ ! تك تك ! خ
خ خ !

طريف هو امتزاج صوت شخيره مع صوت عقارب
الساعة .. والتزامن المثير للأعصاب .. لحدث يوحي
كله بتنقل في الهواء الأسود كأنه شاشة وهمية تسقط
عليها أشعة وهمية

و..... صرير الباب .

ظل يرن مخلخلا الحجرة .. ثم (سماورت) بقامتها
تملأ فتحة الباب المضيئة .. ماذا أتى بها ها هنا ؟
إنها حجرتها على كل حال .. ولربما نسيت شيئا ما من
كتب دراستها أو حاجياتها وجاءت لتأخذها في هدوء
دون أن توقظنا .. ها هي ذي تتسلل في بطء إلى جوار
الفراش ..

صوت حفيف ثوبها الطويل .. وصوت قدميها
الحافيتين .. وصرير الباب خلفها
تأملت في شرود شعرها الطويل المنسدل على كتفيها
بملاءة في ضوء الصالة الخافت ..
وهنا أدركت أن هذه ليست ابنة (عمك) !
إنها - بالتأكيد - أطول قامة منها .. و(سمرة) ابنة
(عمك) لا تملك سوى بعض خصلات الشعر القصير
على جانبي جمجمتها
توقف قلبي عن الخفقان
في هذه اللحظة - أو هذا الشيء - يقترب بسرعة من
الفراش .. من الناحية التي أنام عندها .. إنني الآن
أكاد أصرخ
كانت هي (شيرا) !
... صرخت ... لا ... لا أصرخ ... لكن
الكلمات - بالطبع - تحشرجت في حلقي .. لم
... الكلام ... عرفت ... فقدت الوعي
لجزء من الثانية .. لكن حين عدت ... الواقع كانت
... واقفة جوار فراشي ... بعينين ...
شعثاوين
— ... (رقصة) ... ما رأيت ... ؟



بين هذه الحالة او هذه السيرة .. يطوف هاربة من الفراش

— « ...

— « يجب أن تتنفسي .. ألا ترى أنني أتحول لمسخ ؟؟ »

وفي بطء شديد فتحها .. نفس متقطع كلسان الأفعى يرتق ما بين صفير من الأنابيب فيصمام فلانعه

« يجب أن تلفظ شيئا .. أرجوك !! »

سأصرخ .. هذه المرة سأصرخ ولن تحتبس الحروف في حلقي .. أصرخ .. أصرخ

ستهفو (عماد) مفزوعا لما يرى أو ما رأت حتى لهم على الفور ما حدث .. وكانت مشاركته — ذلك الأبيه — لعله حقا لا لصمتي في هستيريا وصرخ يصرخ معي !!

صراخ .. صراخ .. صراخ

يدور الحراك بضياء .. وزوجة (عماد) وابنه تطلعين على الباب برهفات في جزع ودهشة

نظرنا حولنا لم نر للفتاة

اختفت .. تبخرت تماما

طفقنا بكلمات مبعثرة شرح لزوجه ما حدث .. شبح فتاة كنا نلعب معه في الطفولة برغم أنها كانت قد ماتت .. الأمر الذي لم يقنعها كثير في الواقع

— ويا فرحتي ! رجلان يتحاوران .. مثلكما يتصرفان
بعد منتصف الليل كالمدابغ .. وكل هذا لأنهما يختشيان
الظلام ! ..

— وليس الأمر كما تتصورين يا (أميرة) .. لقد
رحلتا معا في نفس الوقت ..

مصمصت بشفتيها .. وتثاءبت ثم أمسكت كف ابنها
عائدة إلى حجرة النوم .. وهم تقص أن يسألك عما إذا
كنا نرغب في ترك النور مضاءً

بالطبع لنرغب .... !

* * *

في الصباح اتصلت بـ (منصف) لأطمئن بما حدث
أمس فوجدته في حال سيئة جدا .. فـ (شيرزاد) — كما
قال — كانت هناك .. تنتظره جوار باب دورة المياه
وكانت تضحك برقة .

أما (إلهام) فكانت بحال أكثر — في تصوري — لأن
(شيرزاد) ظلت بجوار حمالة دارت طرفه إليها ..
رأتها — حين أيقظت زوجها — ثم ...
ومازحه زوجها بلهجة مضبوطة

إن ما حدث لا يترك مجالا للشكوك

إن المعجبة — (شيرزاد) لا (إلهام) — ... حولنا
وتطاردنا .

كأنها فركت لنا القلب بعد كل هذه الأعوام
كأنها تريد منا شيئا
كأنها تطلب منا أن نعود إلى البيت

* * *

وعند (عماد) القلب .. كانت (إلهام) قد جاءت
مع زوجها الذي بدا غير مصدق لكل هذا السخف

لكنه حين عرف أننا جميعا رأينا الفتاة أمس وفي
نفس الظروف تقريبا بدأ يهتم .. وعلى وجهه الأشيب
الوقور ارتسمت مشاعر القلق .. لا توجد هلوسة
جماعية على الأقل بالنسبة لأشخاص متعلمين .
وهكذا دار الحوار بيننا

كان السؤال الأول الذي سألته (عمير) هو لماذا
عادت (شيرزاد) ؟

الإجابة سهلة .. عادت لأنها تريد شيئا ما

السؤال الثاني .. ما هو هذا الشيء ؟

الإجابة .. لا ندري .. ليتها تحدثت صراحة .. لكنني
أحسست مما تبدو طالبتني بالانتقام قبل أن تتحول إلى
مسخ .. وهذه نقطة جديدة

السؤال الثالث .. ما سر التبدل البشع في مظهرها ؟

الإجابة .. لأنها — كما قلت — في سبيلها للتحول إلى
مسخ

السؤال الرابع : ماذا نهتم بكل هذا ؟

الإجابة : لأنها تطاردنا .. ومن الواضح أنها لن تتوقف عن ذلك .. ولا أحد منا قادر على ممارسة حياة طبيعية سوية في وجود شبح في داره .. فضلاً عن أننا جميعا مصابون بالخبال خلال أيام إذا استمر الحال على هذا المنوال

السؤال الخامس : وماذا سنفعل ؟

الإجابة : لا شيء .. إن (شيرار) هي التي ستتخذ الخطوة الأولى .

فقط علينا أن نبقى متلاصقين وعلى اتصال

لا أعتقد أن (شيرار) ستؤذينا .. فقط ستكتفي بتعكير صفو حياتنا وإصابتنا بجلطات في المخ والشرايين التاجية ...

لكنها تحبك .. نحن متأكدون من ذلك

قالت (إلهام) في غيظ أثار دهشتي

— « كلكم جميعاً تحبونها .. خاصة السيد (رفعت) » .

هززت رأسي في ارتباك وصمت

— « لم أكن قد رأيت عيونا زرقاء في حياتي ! .. هذا كل شيء ! »

— « وعلى الجميع من تعب »

* * *

أطفال تعصرنا النشوة

سنظل أطفالا سكارى

فقد براءة ضحكتها

لنعبر عبير مدينتها

ونتقافز في نهر القلب

ولنجاهد كي نبدو رجالاً .. ! » من القصيدة الشهيرة لـ د. (رفعت) » .

سألت (عماد) وقد انتزع آخر سيجارة في العلبة

— « لم نعرف بعد من يمتلك البيت الآن ؟ ولا مالكه . »

هز (عماد) رأسه .. وداعب شعر لحيته التي تلهو على البساط ببعض الشعيرات الخشبية .. وقال

— « بعد وفاة الأسرة آلت ملكية البيت لأحد الورثة المقيمين في الخارج .. ولم يره أحد — ولا أعتقد — طيلة هذه السنين .. إن سمعة البيت سيئة ولن يدهشني ألا يكون قد وجد مشتريا . »

— « ولكن .. لابد أن هناك شخصا ما يعنى بالبيت محامٍ أو خفير أو أحد الأقارب .. ما الذي يمنع أي معتوه من أن يقتحم البيت ويستولى عليه ؟ »

— « على الأقل لن يكون من أبناء (المنصورة)
فكلهم يعرفون هذا البيت ويخشونه كالموت ذاته »
ساد الصمت برهة ... ثم أدرت نظري إلى (مدحت)
وسألت :
— « هل عرفتم تفاصيل أكثر عن الحادث الذي أودى
بالأسرة ؟ »
قال (مدحت) وهو يضع ساقا على ساق
— « إن القصة قديمة جدا وقد تحولت إلى نوع من
الأساطير منذ زمن ... لكن لا أحد يعرف سوى أن
الأسرة قتلت عائلها ... ثم وجدوا جميعا موتى
ويقال إن اللعنة حلت بالدار من لحظتها »
— « إنها القصة القديمة إذن »
لم يجب الشيخ برنس للورد ... ونهضت
— من الصعب علي أن أصدق كل هذا ... إنه يليق بـ
محاربى الخرافات القديمة ... قاتل شبح بطل والطالب
بأرصفته .
كانت ذكرى (شيراز) قد تبخرت تماما ولم تعد
تراود ذهني ، وحتى حين كانت تراوده في ليالي الشتاء
الباردة كنت أقول لنفسي إن هناك (تفسيرا منطقيا ما)
لكل هذا

منذ أعوام لم يكن كبريائي وجمود منطقي العلمي
قابلين للتزعزع وحين اصطدمت بالغموض والدهشة
وأكل البشر و (فيروس) و (ميدوسا) وجدت دائما
ذلك التفسير العادي
لكن وحش (لوخ نس) و (الصالس) و (الفرعون
الغاضب) تحدث شروخا في جدار هذا المنطق الصلب
واليوم ها هي ذي (شيراز) تعود لتؤكد لي أن كل
شيء ممكن ... إن العقل الأبله ليس هو من يؤمن بعالم
ما وراء الطبيعة ... بل هو من لا يؤمن به
عجيب هذا الكون ... غامض أكثر مما ينبغي ... والمصيبة
أنني سأموت يوما دون أن أفهمه ... ودون أن أتعلم
وستظل علامات الاستفهام هائلة تتراقص أمام عيني حين
يحسب نفسه ذكيا ... وسيدرك عندئذ أنه
لحظتها إلى يوم الحساب .
وفجأة ... رأى الضوء الخافت المعتم على غرفة
الجلوس تحت وجوه الجالسين حولي تشحب
نظرت لأرى ما الذي رعبهم فوجدت
كانت (شيراز) واقفة عند مدخل الحجرة ووجهها
خارج دائرة الضوء !

وسمعت هبة (عماد) يرد وقد وقفت في هلع تنظر إلى

مكعباتها الخشبية من حولها

— « (بوب) .. إنها نفس الفتاة ! .. لقد عادت ؟ »

تصلبت أجسادنا جميعا وشلت أطرافنا .. بعد لم

نستطع أن نستوعب فكرة أنها سوى شبحها ولى هذا الشبح

يقف الآن معنا في غرفة واحدة

كانت تتحرك ببطء .. ووجهها يحمل نظرة الضوء

الآن تراه .. لن أصدقك لو تركنا الأمر تتجاهلك نفسي فقط

أزعم أنه أبشع وجه رأيته في حياتي

كانت ظلمة مطلقة في ما قالته

إنها تتحرك فعلا في مسلح .. وبسرعة لا تصدق

ومن عمق عمق الهاوية حيث أرواح المعذبين

جاءنا صوتها المحشرج الباكي

— « أنتم لن تنجوا من لعنتي يا طلبة العلم .. »

ونظرت بعينيها الحمراوين إلي وهمست

— « الويل لكم .. الويل لكم ! »

* * *

٧ ـ فلندخل البيت ..

انقضى الأمر بعض الوقت حتى تفيق (عبير) من انفعالها ، وتكف (سارة) عن الصراخ الهستيري ، ويستعيد (عماد) ترابط كلماته . ويستعيد قلبي انتظام خفقاته .

وحين عادت المياه إلى مجاريها كانت (عبير) أول من تكلم .. فصاحت في عصبية :

ـ « ماذا تريد هذه المخلوقة منا ؟ .. كيف نطردها ؟ »

قالت (إلهام) وهي تتأمل وجه (عبير) بتساؤل عميق :

ـ « من الواضح أن المشكلة تبدأ وتنتهي في البيت .. »

قال (مدحت) في ضيق صدر :

ـ « إني سئمته ! »

هب (عماد) مذعوراً .. فتفكر ثم عاد وارتد لتوه مهلاً .. ثم رأى أن الحكمة تقتضي بألا يبدو مذعوراً إلى هذا الحد .. فقال مبتسماً برقة :

– ولقد أقسمنا أمام أبي – رحمه الله – على أن يقتصد على البيت .

وقف أبي الفكرة وبدا لي أنها ستضفي على جبهتنا مسحة لابأس بها من الشرف . لكن (عبير) – عليها اللعنة – قالت بصوت أن الخالف ضمنا

– ولكن القسم يتضمن أننا لن نخفض البيت ما دام أبي حيا . أما وقد توفاه الله فقد تحررنا من قسمنا وملكنا طول الدار ! »

هذا ؟ يالك من عقاربه ! حسب نفسي أن تحرم من هذه الفاجرة الشيطانه . لا بارك الله فيك !

بلل (مصعب) شفتيه الجافتين بلسانه ، وهمس :

– وأنا .. متى نبدأ ؟! »

* * *

ياله من سؤال !

بالطبع في ضوء النهار يا (مصعب) . وبالطبع بعد أن نستطيع ... لا داعي لأن نحضر أحد خبراء الأرواح لأن المشكلة مشكلتنا ولن يساعدنا كثيرا . ثم إن النصابين فيهم أكثر بمراحل من الصادقين ، ولا سوف ن نتدخل في مشكلة تتهدد ثيابهم والنظرة المصابة بالهواجس

كذلك لا أرى داعيا لأن يصحب زوج (عبير) وزوج (إنهم) لأن البيت لا يعرفهما ولا يحمل تجاههما ذكرى وربما أدى هذا إلى نتائج غير متوقعة

سندخل البيت في نفس التشكيل القديم وسنكون كل من أمرتني غير رفيق للذكرى . وسيكون الزوجين غير رفيقين لأختيهما ...

هل تحمل شيئا آخر ؟

في الواقع لا أدري احتمالات ما قد نراه في الداخل لكني لا أرى مانعا من أن نحمل بطاريتين وحبلا

... لأنهم يحملون حبلا دائما في القصص يا سيدي !

(عماد) يحمل سكين الجيش السويسري من طراز (فكتوريا نوكس) وهي تعطي فرصة استعمال مفتاح ومقص ومفتاح زجاجات ... إلخ

معي مصحف صغير ... ماء وطعام ؟ .

لا أدري يا (شهيم) فلا أظن المسألة تحتمل كل هذا التعقيد ... لكن ... لم لا ؟ أحملني حقيبة صغيرة بها بعض ... كلا

لا داعي لحمل ... لحم بارد ... ناهيك عن حقيقة الخبز ... بالطبع

هل أنتم مستعدون ؟
هل كل شيء على ما يرام ؟
إذن هلموا لندخل البيت .

* * *

مرة أخرى رائحة الفجر المشبعة بالمازوت الذى لا تعرف مصدره

الضباب يحيط بالبيت الجاثم كوحش أسطورى على حافة التل ..

صوت الخشب يتهشم تحت الأقدام والبيت يكبر يكبر

ومرة أخرى تمس قطط كبيرة متعطرة نحو عصفور ضائع

لماذا نختار الفجر ؟ سؤال غريب .. بالطبع لأنه يبعدنا عن عيون الفضوليين الذين سيدهشهم أن يروا ثلاثة رجال وسرائين يدخلون بيتا مهجوراً .. ولأن الفجر هو الوقت الذى فهمنا فيه (شيرلز) أول مرة ولأن الفجر هو الوقت الوحيد الذى يجمع ما بين أسرار الليل ووضوح النهار .. سحرى نقمص أشباح الظلام ولكن فى ضوء الصباح

ــ « نسيت أن أحضر ثوما ! »

قلتها وأنا ألهث .. فسألنى (عماد) فى حيرة .

ــ « ثوم ؟ .. من أجل الطهى ؟! »

ــ « بل لقتل مصاصى الدماء إن وجدوا ! .. تعلم أن لى خبرة فى هذه الأمور ! »

فكتب فى سطوره متوقعا أن يموتوا دهرا .. لكن (عبير) مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت سكينا لها لون فضى براق .. وسألتنى :

ــ « هل هذه تنسيك ؟ .. قرأت أن مصاصى الدماء يخشون الفضة كثيرا ! »

ــ « يا لك من عبقرية ! »

الواقع أننى نجحت فى أن أصب نفسى على الصوت ، ولولا بقية من [illegible] لوثبت الأجيال

عالى ذو بوابة البيت الضخمة والنهايات الشيطانية تلتف حولها

ــ « لكنها مفتوحة ! »

كنا صرخ نحلب ــ ربما أنا ــ وهو يتصلب أمام البوابة المهجورة .

قال (مدحت) وهو يرمقنا بنظرة ذات معنى

ــ « هذا طبيعى .. إن البيت يذكرنا بعد كل هذه الأعوام .. وينتظرنا ! »



نعم يا رفاق ! لقد حدث ما كنتم تنتظرونه في استعداد ملائكي مرعب

تنتصب شعر رأسي – أو ما تبقى منه – وتلاحقت أنفاسي وهو يحدثني بينما صرخ ملاكي الحارس :

لا تتحرك ! بربك لا تتحرك .. اركض بعيداً واترك للشيطان يطاردك ..

لكن هذه حقيقة واقعة ..

إنهم يجتازون البوابة الواحد تلو الآخر .. هم خائفون لكنهم يبررون [illegible] .. ولا بد [illegible] [illegible] في كل قصص الشهداء في التاريخ [illegible] من أناس خشوا أن يبدوا جبناء ..

والآن ها هو جهاز البوابة .. يعمل لأول مرة منذ عشرين عاماً ..

كرررررررررك

هذا الصوت ..

نعم يا رفاق ! لقد حدث ما كنتم تنتظرونه في استعداد ملائكي مرعب ..

لقد انطلقت البوابة خلفنا وبمجرد أن عبرناها !

* * *

– لا توجد مشكلة .. نستطيع سحق الصور في لحظة ..

قالها (مدحت) وهو يتأمل البوابة المغلقة ويحاول

فتحها لكنها كانت مغلقة بكالون (لانش) دلالة
يحتم على من يريد فتحه أن يجد المفتاح

— « (رأفت) الأحمق جنبها خلفه أو تشبهت
بشبابه »

ضحكت وقد تصاعد الدم إلى رأسي

— « وهل تجد هذا تصرفا متوقعا مني ؟ »

— « إنه هو الهواء .. »

رفعنا رءوسنا لأعلى ثم تبادلنا النظرات
إن الإجابة متوقعة رغم أنه لا توجد نسمة هواء
واحدة

إن من أغلق البوابة هو بنفسه من ينتظرنا هناك

قلت وأنا أشعل سيجارة

— « ما رأيكم ؟ يمكننا الانتظار حتى يأتي أحد
المارة فنستغيث به لإخراجنا أو نحاول تسلق السور
الحديدي ، لا نريد الموت كفرا داخل البيت وجثثنا
محترقة »

يبتسم (مدحت) للتشبيه ويقول

— « لولا السفن المحترقة ما انتصر (طارق بن
زياد) لا مفر الآن من التمادي إلى آخر الشوط »

قالت (جيهان) معترضة على كلماته

— « إن الاستغاثة بأحد المارة ستوقعنا في مشكلة هي
لماذا اقتحمنا هذا البيت ؟

هذا — بالطبع — ما لم يقتلنا أشباحا ويموت بالسكتة
القلبية ... ناهيك عن تسلق السور ... إنها بدينة جدا و (عبير)
حامل في الشهور الأولى وأنت يا ... (رأفت) مصاب
بالربو وضيق الشرايين التاجية — كما قلت لي — فكيف
بربك تتسلق هذا السور ؟ »

قال (مدحت) وهو يشير لساقه

— « وأنا مصاب بكسر قديم لم يلتئم بشكل مرضٍ »

* * *

نظرت بعينيها العسليتين لي ... وهمست

— « إنما لكم ... قرين لكم »

* * *

عبر الأشجار المتشابكة الملتفة حول نفسها أيضا و
مصيها تشق الطريق نحو البيت

الصدر يحرق أطراف أغصانها لو أن عصفورا غرد
لوثبنا جميعا مترين في الهواء ... لكن للعصافير — كما
قلت لك — لم تكن تدخل هذه الحديقة

ها هو ذا مدخل الدار ... وجدرانه مطرقة على شكل
جمجمة ...

لا أثر لكائن حي .. لكن الباب مفتوح
كنا سندفع دخولي لولا أن هتف (مدحت) محذراً
— « مهلاً .. ليس هذه المرة ! »
ثم إنه أخرج قطعة حبل من جيبه وربط طرفها
بمقبض الباب .. ثم شد الحبل ليربط الطرف الآخر في
جذع شجرة قريب .
— « بالطبع ينتظر هذا الباب دخولنا لينغلق مثل الباب
الخارجي .. لكن لن نسمح بذلك .. »
ثم نظر (مدحت) لي و (عماد) متسائلاً
— « أعتقد أنه من الحكمة أن ينتظر أحدكما خارج
الدار .. من الصعب أن ندخل جميعاً غير عالمين
بما ينتظرنا بالداخل .. »
— « ليس أنا .. »
قلتها على الفور وقد رأيت بعين الخيال صورتي
واقفاً على مدخل الدار فتلك ستجعلني فريسة لمخالب
القلق والرعب .. غير مسموح لي بالدخول ولا مسموح
لي بالفرار ..
رحب صاحبنا (عماد) أنه مرحب بالقيام بهذه
المهمة التي تبدو سهلة
— « لا تنس إذا رأيت ما يريب أن تصرخ .. »

— « حسناً .. »
وفي صمت تسللنا بطريقنا وتلفنا من الباب .. الظلام
ورائحة الرطوبة والعطن .. والغبار يغلف كل شيء
هل تحركت الموجودات عما كانت ؟ لا أذكر .. لا أحد
يذكر .. لا نتذكر حتى الإضاءة التي كنا نرى الأشياء
فيها .. هل كانت كهربائية أم أضواء شموع ؟
غريب أننا لم نلحظ ذلك
سمعت (مدحت) يهمس في أذني
— « لعل مسدسك في يدك تحسباً للمفاجآت .. »
تحسست جيبي في حيرة .. ثم همست في بلاهة
— « ولقد نسيته ! .. » نظر ! لا أدري كيف .. لكن
لا تدع أحداً يشعر بذلك في الوقت الحالي ! »

* * *

٨ — إنه حيّ ! ..

كنا موقنين أننا سنراها
لكننا لم نملك أدنى فكرة عما سنشعر به لو حدث ذلك
في أعماق نفسي أن تكون قد رحلت .. لم يكن أحدنا
راغبًا في رؤية ذلك الوجه الشائه مرة أخرى خاصة
على ضوء البطارية الخافت باعث الظلال

ها هي ذي (عبير) بشعرها الأشعث .. تسرح على
وجهها خيوط العنكبوت الكثيفة .. و (عمرو) يرتجف
كالعادة .. وقد تظاهر بالثبات .. أما (مصطفى) فهو
أكثرنا جرأة وشجاعة ، لهذا سيتحول إلى قائد مرتجل
لجماعتنا الصغيرة

المائدة الطويلة حولها مقاعدها الأبنوسية
والمرمرية المتآكلة والشمعدان

الستائر المتدلية .. تماثيل المستعمرات الأوروبية
تتكور في أوضاع ، يحاول المثال أن يجعلها مغرية
المرايا العديدة التي عكست عليها ظلالنا

همست في أذن (مصطفى)

— « هل تذكر قصة (تشارلز ديكنز) الشهيرة
(توقعات عظيمة) ؟ .. الآنسة العجوز التي ظلت قاعدة
المائدة في دارها خمسين عامًا بحالتها حتى كعكة
العرس والمشروبات .. لقد نسيت اسمها »

— « لا أقرأ هذا الهراء الذي تقرؤه .. وليس الوقت
مناسبًا لاستعراض ثقافتك »

— « لا حاجة لي في هذا .. إن كل موقف في حياتي
يذكرني بموقف مماثل في عمل أدبي .. و ... »

لكن (عبير) متصلبة كالتمثال .. لماذا حدث ؟
دنوت منها .. ونظرت لعينيها متسائلا عما هنالك
همست وهي ترمق مقعدًا إلى جوار (كونسول)
صغير مذهب .

— « (رأيته) .. »

— « ماذا ؟ »

— « إنه حي ! »

* * *

علك ستقول يا (عبير) بالله عليك كفي عن
هستيريا النساء لحظة واحدة .. لقد رأيت المقعد يتحرك .
فتقول إنك اصطدمت به .. فتقول إنها واثقة بالكامل .
فتقول إنك مخطئة .. فتقول أي شيء

لكن لا تزعمي لحظة أنه يتحرك حركة ذاتية »

صاح (مدحت) في شهور :

— « يا إخوان .. لقد سحب هذه الفأر لنواجهه فتتبعها فليس غريبا أن نرى كرسيا يتحرك .. أي من يذهب نصيبه الأكبر أن يشاهده طائرا أو يرى آثار مخالبه على الأرض ... »

وهكذا ..

خرجت — وأراه خالي — نمشي الطريق المسلط على ضوء البطاريتين فلم نجد شيئا غير عادي

مجرد بيت لم نكتشفه فلم نجد ...

وعندئذ صاح (عماد) وهو يشير للأرض مسلطا ضوء البطارية

— « انظروا .. »

فنظرنا

إلى الأرض المكسوة بطبقة كثيفة من غبار الأعوام نظرنا .. كانت هناك آثار أقدام .. أقدام صغيرة عارية كأنها لطفلة مشت حديثا في هذه القاعة

(شهرزاد) كانت حافية في أغلب الأوقات التي عرفتها فيها .. ومن الغريب أن هذا لم يبد شاذا .. لقد

لو كانت هذه آثارها قبل أن وجودنا هنا

ولكن .. هذا حتمي .. لقد كانت تلعب معنا وتلمسني وتحرجني .. فهي لم تكن طيفا بل كائنة إكتوبلازمية متجسدة

إن (شهرزاد) هنا

وبالتحديد من فترة قصيرة جدا ..

استنتاج لا بأس به .. أما الاستنتاج الأهم فهو أنها — أثر قدميها — تتجه في ثقة إلى الطريق العلوي .

همس (مدحت) وقد تملكته الرهبة .

— « أين سنجدها هناك .. ؟ » .

— « بل هي تريد منا أن نذهب هناك » .

* * *

— « سأموت إن ما طلبت مني ذلك » .

— « إني .. معك !! »

* * *

قال (مدحت) وهو يتحاشى النظر لي

— « من الحمق أن نصعد جميعا .. بل الأفضل أن ينتظر اثنان منا هاهنا حتى يجدا الآخرين في حالة الخطر .. ومن يدري ؟ ربما كان الاثنان اللذان سيصعدان هما معا الآخرين اللذين سيظلان هنا ! »

لهذا السبب — ولأنني أكره دور المنتظر القلق — قررت

ان أقرب من القصب عند الطابق الاعلى وكانت المشكلة هي المواجهة الصعبة لشخص جرئ مثل (مدحت) في المكانين معا ثم استقر الرأي على أن يصعد معي .

على ضوء البطارية مرى فوجدت السلم الخشبية العتيقة مغطاة بطبقات من الغبار وآثار القدمين الصغيرتين .

نشم رائحة الاعوام ونسمع بهشم الخشب الرطب ونشعر باقتراب كارثة من نوع ما

* * *

اصدقائي (شيرى) * مرحبا بكم إلى اصدقائي الذين هم أبنائي

* * *

إنه الطابق العلوي حيث غرف النوم

سيكون بدور ثقيل على النفس هو فتح هذه الابواب الموصدة بابا بابا بالبحث عن شيء لا ندري كنهه

الباب الأول فرش عتيق وستائر معلقة بالعنكبوت و جو للغرفة يوحي بأنها غرفة نوم امرأة ربما الأم بالذات ..

الباب الثاني لا يتفتح موصد بالمفتاح من الداخل أو الخارج لا ندري

الباب الثالث غرفه نوم طفلة في الهواء أريج الفقر .. وطواويط و

هذا ؟.. وطاويط ؟ تلك

بالطبع ؟ لقد نسينا امرها ونسينا أن هذا البيت هو بيت الاحلام بالنسبة لها وها هي ذي تلك التكوينات المجمعة البشعة تتعلق مرفرفة بأجنحتها السوداء في أرجاء الغرفة وقد أقلق سباتها صوت حركتنا

أغلق (مدحت) الباب على الفور قبل أن تخرج هذه الكوابيس المحببة لك

* * *

كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلي من وقت لآخر

* * *

وهنا دوى الصوت

في البدء ظننا أن المنزل سينهار فوقنا ثم أدركت - بعد ثوان - أن هذا صوت باب يغلق بشدة في الطابق السفلي

تبادلت و (مدحت) نظرة عدم فهم ثم فجأة أدركنا ما حدث

باب المنزل ! هذا بالتأكيد هو صوته ! لقد أغلق علينا لنصير سجناء في هذه الدار الرهيبة

همست بصوت كالفحيح

— « لكن كيف ؟ إنك قد ربطته بحبيبه »

ابتلع (مدحت) ريقه - وهمس

— « المشكلة هنا أن هناك شيئا قد حدث لـ (إبراهيم) بالتأكيد .. ما كانت لتترك الباب ينغلق وهي جواره »

قلت وقد أدركت خطورة الموقف

— « و (عبير) و (عماد) .. لو أنهما بخير لما أغلق الباب ! »

أظن هذا هو ما حدث

إن حاجتنا لتأمين خط رجعتنا قد جعلتنا نتوزع إلى مجموعات صغيرة .. (الهيثم) على الباب .. (عبير) و (عماد) بالطابق السفلي .. أنا و (مدحت) بالطابق العلوي .. وهكذا تركنا جيوبا معزولة في هذه الأماكن

ترى ماذا أصاب الآخرين ؟..

هرعت جريا إلى الطابق السفلي فوق الدرجات المتهالكة .. كان ضوء النهار قد بدأ يتسرب من شقوق النوافذ عبر شرفات الستائر .. ولقد غدا بإمكاننا أن نتبين ما يدور حولنا دون جهد كبير ودون استعمال ضوء الكشاف ..

لم يكن هناك أثر للباقين ..

وهو جرينا إلى باب الشقة نتحسس مقبضه .. أدركت أنه مغلق بإحكام .. ومن المستحيل فتحه

أي نحن محبوسان في هذا البيت

لا مخرج لنا .. ولا رفيق

ولكن ... أين ذهب الجميع ؟

* * *

— « (شيرين) .. أنا خائف .. »

— « خائف وأنا معك ؟ »

* * *

— « لكننا لم نسمع بعد أي ضجيج .. البيت في حصارنا نستطيع دفع هذه النوافذ الخشبية المصمتة والفرار فورا من فوق سور الحديقة »

قالها (مدحت) في توتر محاولا أن يتماسك

قلت في لهفة

— « بلى .. لنفعل ذلك الآن »

كان المزلاج الخشبي بمصراع النافذة صدئا متجمدا في مكانه .. بيدا تشبثت بمزلاج الخشب وشرعت أهزها في جنون محاولا تحريكه

كان ذلك حين دوت الصرخة

صرخة كانت .. مكتومة كأنما .. قادمة من بئر

الجحيم حيث تحترق أرواح الخطاة وأجسادهم
وشعرت بالشعر على ساعدي ينتصب
ثم تبادلت نظرة مع (مدحت) حين عرفنا مصدر
الصرخة ... وفي نفس اللحظة همسنا بصوت كالفحيح
— « هنا ! »
صعدنا بضع درجات السلم إلى أعلى ثلاث درجات في
كل وثبة ... عابسين بخطر يهشم الخشب العطن تحت
أقدامنا ... لكن الصراخ مستمراً أتى من إحدى غرف
النوم القديمة التي لم ندخلها بعد ... وبركلة واحدة فتح
(مدحت) الباب لنرى على ضوء البطارية أغرب مشهد
نراه ...
كان هناك حبل يتدلى من سقف الغرفة ... وكان هناك
شيء ما معلق بالحبل يتلوى كالأفعى ... وكان هناك
فراش عتيق الطراز ... أما على الأرض فكانت هناك
أشياء مدببة بارزة لأعلى .
استغرق ثلاث ثوان لنفهم ... وثلاث ثوان أخرى
لنصرخ هلعاً
وفي هذه اللحظة لمحناها ... (شيراز) !
كانت متربعة كالقطة فوق الدولاب الأثري الموجود
بطرف الحجرة ... وكانت قدماها العاريتان الشاحبتان

متدليتين على حافة الدولاب وهي تحركهما في استمتاع
والظلال تكسو وجهها لكننا كنا نعرف أنها هي
وسمعنا ضحكتها الرقيقة العذبة تغرد
— « لقد تأخرتم كثيراً في المجيء يا أحبائي ! »
ثم إنها استرخت في جلستها ... وردفت
— « ها هي ذي لعبة مسلية أخرى ... إن (حسام)
معلق كما ترون إلى السقف بحبل متآكل في الواقع
حبل ضعيف جداً لدرجة أنني أسمع صوت تمزق أليافه ... هسه !
هل تسمعون ؟ كرر كرر تورك ... هي هي ... وحين
ينقطع الحبل سيهوي ... فوق ماذا ؟ فوق هذه النصال
المدببة المشرعة لأعلى التي ستحيل جسده البدين إلى
مصفاة ... ! »
ولمعت تضحك في حين رأيت على ضوء البطارية
أنها لم تكذب في حرف واحد
— « كرر كرر تورك ... هاهاها ! اللعبة هنا هي
هل بمقدوركم إيجاد طريقة لإنزاله قبل كرر كرر تورك ؟
إننا لم نلعب سوياً منذ أعوام ... ويبدو أننا سنمرح كما
كان في الماضي أو أكثر ... هي هي !! »
الشيطانة ! كان (حسام) يتلوى في جنون متوسلاً
لنا أن نفعل شيئاً ... ثمة خطاف مثبت إلى الحزام وعرقه



كان (عماد) يتلوى في حركة محموما كان لا بد أن يفعل شيئا .. ثم
تطلق من ... الحبل وطرفه الآخر مشتبك في سوستي

الآخر مشتبك في سوستي .. لا أدري هل سيعرف مصرعه
أولا أم الحبل .. لكن ما أدريه هو أن أمامه ثلاث دقائق
أو أقل قبل أن ..

صحت في هلع :

— « كف عن التلوي كالأفعى أيها الغبي ! إنك تريد
عمرا قصيرا قصيرا ! »

وأمسكت بيد (مصعب) في جنون محاولا منعه أن
يفعل شيئا .. موقف تفكيري تماما .. ولم يعد لدي سوى
الأمل في أن يكون تفكير (مصعب) يقظا ..

— « (مصعب) .. ستحاول التقاطه حين يسقط .. أنا
وأنت .. »

دوى صوت (شيراز) المرح المرير فقطعني بطرب

— « فطهقت » ! »

همس (مصعب) في توتر :

— « كلا .. إنه ثقيل الوزن وسيكون ثقل عند
سقوطه .. ثم إنه لا يوجد بين العمال مكان يسمح لنا
بوضع أقدامنا .. سينتهي الأمر بتحطيمنا جميعا .. »

— « لن نحاول تسلق الجدار وإنزاله .. »

— « كلا .. كلا .. الجدار أملس .. وحتى إذا .. »

ولم يكمل عبارته لشرود ذهنه لكنى فهمت ... حتى إذا تسلقنا الجدار فكيف نجذبه إلينا ... وكيف نرفعه ؟ لابد من فكرة أخرى ... كرى ... كرى !

— « دقيقة ... » .

الثوانى تمضى ... ولم نجد فكرة مناسبة ... كرى كرى !

— « ثلاثون ثانية ... ! »

* * *

٩ — ألعاب شيطانية ..

فجأة صرخ (ممدوح) :

— « هيا (رفعت) ... نحمل السرير معى »

— « ولكن ... ! »

— « أسرع ... سنضعه فوق الرمال كشبكة يهبط فوقها (عماد) عند سقوطه ... هلم معى »

ونهض جرّ السرير الثقيل وحملناه حتى كادت جذوره عضلاتى تنفجر — لكن لا وقت للصراخ الآن — والتفتنا لاختيار الموضع الذى سيسقط فوقه جسد (عماد) بعد ثوان .. كرى .. كرى !

— « ربع دقيقة ! »

انطلق (ممدوح) بسرعة ... ثم ألقى بالسرير فى المكان المناسب له ... تماما فى نشاط

— « ولكن هل يحتمله الرمال ؟ هل ستحمى المظلة جسده حقا ؟ »

ارتجف ونظر إلى رفيق العمر ... لا وقت لديه لاستيعاب

هذه الفكرة .. فلننجح أو لنحل اللعنة على كل شيء
سيهل عنده الآن ..

صوت (شيراز) الرقيق يدوي

— فكرة لا بأس بها .. لكن جسده الثقيل سيهوي ويهشم الفراش لننفذ النصل عبره .. كنت أظنكم أذكى من ذلك .. والآن دعونا نر مدى صواب أفكاركم هذه .. هو ذا الحبل يتقطع .. هيه .. إنه يسقط يسقط !»

* * *

« لقد فعلت العجيبة كل ما بوسعها كي تحذركم من أي ما يجري في هذا البيت المريب .. لكنكم لم تفهموا »

* * *

— أي هوي للجسد من السقف حتى أغمضنا عيوننا — تلقائيا — متوقعين كارثة

لكننا — حين فتحناها — لم نجد كارثة .. بالأحرى لم نجد شيئا على الإطلاق .. لا (عماد) ولا (شيراز) ولا حبلا يتدلى من السقف .. لا شيء .. فقط الفراش في موضعه الذي نقلناه إليه

كنا نلهث وفي حالة أقرب للجنون .. لكننا فهمنا في حالة هلوسة بصرية وسمعية شبيهة اعتدنا عليها هذا البيت اللعين ..

ولو كان شبح (شيراز) معنا في الحجرة [illegible] دامع العينين من فرط الضحك على حماقتنا واندفاعنا الهستيري من أجل سراب

تبادلت النظرات و (مدحت)

ثم بدأت موجة عارمة من السباب متوعدين الفتاة بالويل والثبور لو سقطت بين أيدينا .. سنكون أول المتبرعين بسحقها في شكل شبح

* * *

وهنا سمعنا الأنين

كان قادما من الطابق السفلي

كأنه أنين امرأة جريحة فقدت أملها في شيء .. ولم يكن في مقدورنا إلا أن نهرع لنزلق الدرجات الخشبية متسائلين عما هناك

وهناك — عند ركن الصالة — رأينا على ضوء النهار المتسرب من الخارج الشبح الكابوس رابضا في مكانه

(عبير) القطة الرقيقة مقيدة بجدار .. وعلى فمها تلتف ثلاث أذرع شريرة المنظر لا تزحزح بالثقلة .

وكانت البائسة — (عبير) طبعا — عاجزة عن التملص أو الحركة أو حتى الصراخ بصوت عال على لا تثير حفيظة الزواحف الملتفة حولها

— « لعبة جديدة تعويضي يا عبير ! »
كذا دوى صوت (شيراز) الرقيق فالتفت إلى مصدره
كانت واقفة في أعلى السلم بثوبها الأبيض الطويل وهي تضم إحدى يديها إلى الأخرى في شغف
صاح (منصف) في عصبية وهو يثب السلالم ليهشم رأسها
— « أيتها العدوة ! ... لقد صنعت درعي ... »
في رقة وضعت إصبعها على شفتيها محذرة
— « شش ... إن هذه الأفاعي عصبية المزاج وشرسة جداً وسامة ... فلا تجازف بأن تلدغ إحداها شقيقتك الرقيقة في ساقيها ... لو كنت مكانك لبدأت التفكير في كيفية إبعاد الأفاعي دون إثارة حفيظتها ... »
بعد كلامها مباشرة ... عاد (منصف) يهبط درجات السلم في حذر ... ووقف جوار شقيقته قلب
هذه المرة لا أرى حلاً يهدد للوهلة ... إلا أنني همست
— « بإمكانه هي طوسه كالمرة السابقة ؟ »
همس في عصبية وعيناه لا تفارقان المشهد
— « وماذا لو كان وقتاً ؟ »

— « لا أدري ... في الحقيقة يبدو لي الأمر محيراً وغامضاً إلى حد لا شك فيه ... »
— « والحل ؟ »
كانت الأفاعي تنفث في غضب وتتراقص حول ساقي الجالسة التي تقف ... أو كادت ... شيء هو الخوف الذي لا تملك حتى حق التعبير عنه
وهنا خطرت لي فكرة
فنزعت قطعة من قماش الستائر وأحرقتها بقداحتي ثم ألقيت بها مشتعلة على بعد متر من ساقي (عبير)
— « ماذا فعلت ؟ »
— « الحرارة ... المعروف أنها تجذب الأفاعي والمعروف أن جسد (عبير) بارد كالثلج من فعل الرعب ... أعتقد أن الأفاعي ستنفصل الذهب لحرارة ما فعلته ... »
بالفعل ... بدأت الأفاعي تفك قيودها من حول ساقي الفتاة ... وتزحف ببطء وبرودة تجاه المصدر الحراري الوحيد في المكان ... يجب أن نسرع بإنقاذها الآن ... و فجأة
لتنقض كل شيء ... تعلقت (عبير) والأفاعي و(شيراز) ... لم يبق سوى قطعة من القماش المحترق ملقاة جوار المدفأة

إنها خدعة بصرية قاسية أخرى

إن الوحش لم يزل طفلاً يصبو إلى اللهو .. اللهو المؤذي المزعج الذي يلصق أصحابها بنا

* * *

فجأة جذب (مدحت) ذراعي

معًا سمعنا صوت باب ينفتح في بطء

أجفلنا وتهيأنا لأسوأ النتائج .. إلا أن الباب انشق عن وجهي (عبير) و (عماد) الشاحبين .. خيل لنا أننا لم نر قط وجهين أجمل من هذين

— « (مدحت) .. (رفعت) ! .. أنتما بخير ! »

وارتمت (عبير) في حضن أبيها على حين عانقني (عماد) كالملهوف وصرخ في حبور

— « سمعنا صرخاتكما فهرعنا من مخابئنا .. فوجدنا »

قلت وأنا أشعل سيجارة :

— « نعم .. نعم .. وجدتماها على شفا الموت »

— « كيف عرفت ؟ .. كنت أنت ساقطًا على الأرض بين لعب شرسة تنهش جسدك ! »

غريب هذا ! .. تذكرت على الفور الكابوس الذي كان يزور عبيرا ليلاً وتمكنت من سائر حضاناتها النسم !

إن لتلك الحمقاء معك — برغم كل شيء — بعض الشفافيه

— « وكيف تصرفتما ... ؟ »

— « قمنا بتحريك المائدة لننزعها .. إلا أن كل شيء تلاشى فجأة .. »

— « هذا ما حدث لنا بالضبط .. وماذا عن (مدحت) ؟ »

صاحت (عبير) في لهفة وبصوت كالبكاء

— « كان مسخ رهيب يطارده .. واستعد للظفر به ثم .. »

— « .. تلاشى كل شيء »

هتف (مدحت) في غل

— « إن الوحش اللعين يتسلى باللعب بأعصابنا وأقترح أن نغادره فورًا قبل أن يجن .. »

— « لقد جعلتنا (شيرلي) نرى بعضنا البعض في ورطات شبيهة .. فهي تتسلى بمشاهدة ردود أفعالنا إنها لم تفقد بعد روح الطفولة وإن شابتها نزعة سادية منحطة .. »

نظر (مدحت) إلى النافذة الموصدة وعاد يواصل ما كان بدأه من محاولة لنزع المصراع .. وشرعت أؤيد مساعيه متظاهرًا بالمعاونة

حين دوت الصرخة

لقد صار هذا مملاً .. سأشعر بالقلق لو مرت عشر

تقلق في هذا البيت دوماً صوت ما .. صراخ أو أنين
أو باب يتغلق أو حبل يتمزق
كانت قادمة من الطابق العلوي
بالتحديد عند نهاية (درابزين) السلم
كانت (إلهام) هناك تصرخ وتلوح كأنها ترى شبحاً
مرعباً .. وكأن شيئاً ما يتقدم نحوها .. شيء ضخم لم
نستطع رؤيته وجهه لكنها لم ترض في ذلك قط .. فقد
كان يعد بذات .. نحوها .. ويرجف
ومن ذعرها كانت ترجع للخلف .. للخلف
وفي الخلف كان (الدرابزين) المهشم منخفض
الارتفاع ينتظر
وهنا سمعنا صوت (شيراز) المحتمي
— « والآن لعبة جديدة من ابتكاري .. إلى المسرح
يتقدم نحو (إلهام) وعليها أن تختار ما بين الهبوط أو
السقوط من أعلى .. »
كانت واقفة هناك جوار المسرح بثوبها الأبيض تبتسم
وقد بدت كأنها مديرة تقدم فقرة رياضية في برنامج
مسابقات مسلٍّ
— « لا تحظروا أنكم من تستطيعوا الصعود لها .. إن
درجات السلم تهشمت .. »

وتطلعت إلى عنقه .. كانت الدرجات التي صعدناها
وهبطنا عليها مراراً قد تلاشت تاركة مكانها فجوات
سوداء رهيبة
— « هل محاولة التقاطها عند سقوطها .. فستشوك
فيها .. إنها ثمينة جداً وستفلت بالتأكيد من بين أصابعكم
مثلكم تسقط فوقكم معتبة جثثكم إلى سجادة .. والآن
دعوني أرى ما ستفعلون .. إن (رأفت) البطل سيجد
حلاً بالتأكيد .. ! »
كانت (إلهام) تصرخ .. تتراجع للخلف في هلع
وتتوسل إلينا :
— « (مدحت) !.. افعل شيئاً ..! »
فهي دون حبيبة طفولتنا البهية توشك على أن تلقى
مثلها ونحن عاجزون عن إيجاد حل مناسب .. ولكن
لماذا نجد حلاً ؟ إنه وهم جديد آخر من أوهامها التي
لا تنتهي ..
نظرت للآخرين لأجدني أكثر توتراً من أي وقت
مضى .. من أن تخدعنا هذه اللعينة مرة أخرى — (شيراز)
وليست (إلهام) طبعاً — حتماً ستتركنا هذا البيت مهما
حاولت تستبقينا
— « (رأفت) !.. أرجوك أنقذ طفلي ! »

ضحكت (شيراز) في تأفف

— « هكذا يا (إلهام) .. لا أحد يرغب في مجرد المحاولة ! »

أشعلت سيجارة الغرور .. وشرعت أفكر على صوت الصراخ القادم من أعلى .. النار والدخان .. الغضب .. تلك كل هذه أوهاما .. لكن الأوهام التي اشتعلت فيها النار تلاشت فجأة .. النار تبدد الأوهام .. وها هي ذي سيجارتي مشتعلة « في .... »

(إلهام) هي التي وثبت بي لدى عالي وجعلته يجبرها على أن تقسم ويهدف انتهت علاقتك بالبيت (إلهام ، مرضتها الغيرة فاندفعت تسرق عري الصداقة الوحيدة في حياة (شيراز) أو معتها

(شيراز) عاشت وحيدة دون أصحاب .. صوت لا أعرف عددهم .. ربي تملك كل الأساليب كي تملك (إلهام) .

* * *

« لقد جميعا هنا من أجلها .. لا أحد يرضى .. ولا أحد يهتم بي ! »

* * *

« مشكلتي هي أن (شيراز) لا تجد أصدقاء من سنها .. ما أسماؤكم يا أحبائي ؟ »

* * *

(إلهام) تتقدم نحو الحافة

فاللامبالاة على وجوه الأشقاء الثلاث

وقف فهيم

وفي هلع صحت وأنا أثب نحو المكان الذي ستسقط عنده :

— « إن هذا ليس وقت .. هذه هي (إلهام) .. وكل ما يحدث حقيقي .. لقد بعثت النار كل الخيالات السابقة .. تكسر أنصاف سيجاري وتقلب الصورة مستمرة ! »

— « ولكن .. »

— « لسر جورو .. »

وقبل أن ننطق على شيء وقف جميع أسفل المكان الذي تقف عنده .. ومددنا أيدينا لأعلى في محاولة لا معنى لها لعمل شيء ما »

وها هو تهشم السياج الذي كانت تستند إليه ، إلهام !

وكمعنا جسدها النحيل يهوي فوق رؤوسنا كنيزك عملاق

* * *



لقد التقت جزء من خشب المبنى في ثوب (إلهام) فتدلت ،
كالثوب من أعلى (الحرس) فوق (رستم)

١٠ – (شيراز) تتكلم ..

توقف الكرسي تمامًا ثم تحطم

وحين رفع (رستم) – في حذر – الى عينيه وجد أن الحظ لم يتخل عنه بعد

لقد التقت جزء من الخشب مهشم في ثوب (إلهام) فتدلت – كالثوب – على الحصن (الحوريص) فوق رءوس .. كانت تصرخ وتولول بشدة تحت هيبة على الإطلاق .. وقد حصرت على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب عوضًا عن ثمانية

الحمد لله العلي القدير

– « (رستم) !! إنني هنا ... أسقط » .

كان طرف الثوب يتمزق – لا بعد المخلب – ببطء شديد .. سمعت صرخة وركبتي على استعداد هذه المرة للتلاقي بين ذراعي المحتومة .. صحيح أن محاولتنا قد فشلت ... تحت السقطة المتعثرة تلتهم كانت تحرق عضلاتي .. وسقطت على الأرض جثة شبه مهشمة

وظللنا نتساءل عن كيف يكون الأمر لو أنها سقطت
من الارتفاع الشاهق فوق رءوسنا ؟

نظرنا فوجدنا المسخ و (شيراز) ينظران لنا من
أعلى

صرخ (مصعب) من حيث ارتمى على خشب الأرضية
ممسكا بفمه

— « تصير أيتها الشيطانة .. لو وقعت في يدي ! »

ثم عبرت (شيراز) من .. تتوارى مع المسخ ببطء
واختفت في الظلام

صاح (عماد) في حنق

— « (رفعت) .. ارفع كعب حذائك عن عنقي ! »

— « ليس قبل أن تخرج كوعك من معدتي .. »

وارتجف من شدة شعوره .. تلتف حول ساقي .. فصرخت
في حنق أشد

— « ابتعد من هنا .. فليبعد صاحبه عني ! »

— « أعتقد أنه من حقي أن .. ظل الساق ساقي »

الخلاصة أننا استغرقنا بعض الوقت حتى نفهم حقيقة
وضعنا وكينونتنا .. وحتى ننهض على أقدامنا

وحين وقفنا نحيي — لاهثين مغبرين — كما لو تركنا
ما حدث .. حتى كانت (شيراز) مختبئة

وحقا كانت بحاجة إلينا

لهذا — وحين تسببت (الهلم) في انقطاعنا عن
المجرة — قلبت (شيراز) سوف مرورها من الوحدة
شبيهة حقا في وحدة الأشباح بعيدا عن كل ما يربطهم
بعالم الأحياء

والظروف لا نفهمها بدأت (شيراز) تتحول إلى مسخ
من ثم صممت على الانتقام ممن كانت سبب عذابها
وحرمانها من الصحبة الآدمية .. وكان هذا الانتقام
المروع من (الهلم) يتلخص في جعلها تلقى نهايتها
المطرعة تحت عيون أصدقائها الذين لن يحركوا
ساكنا !

سيعيشون كل هذا وهنا آخر بعد أن ضاعوا الأوهام
المماثلة

أي تفكير مروع .. وأية قسوة !

المشكلة الآن هي ماذا عسانا فاعلون بعد ذلك ؟

من الواضح أنها تملك بداعها في أي وقت تشاء

وحتى لو هربنا — وهذا ليس صعبا — فليس بحسب
لنا أن (الهلم) لن تواجه كارثة نحن ؟ .. ربما في
صالون دارها أو المصعد أو حتى في الطريق العام

ثم — الأدهى — من قال لنا إنها لن تضغط في

فالمثها السوداء بعد ما انحطت لعبتها الجهنمية ؟

إن هذا منطقي وسأندهش لو لم تفعل

مشكلة الأشباح هي أن التنبؤ بما يعملون عنه مستحيل

— « أعتقد أن الوقت لا يسمح سوى بمغادرة البيت ... »

— « والقفز من على السور الحديدي المرتفع ؟ »

— « إن تطلب هذا هدفا كبيرا ... سنجد حلا لو انتها »

وعندما تكررت الطرقة ... محاولين تهشيم مصراع النافذة

لتثبت جيدا ! هيه ! إنه يلين ... مستمرا (رأفت)

هيه ! هل ... هاهو ذا ! ... ارفعني ! سيتهشم

الخشب واستطعنا عبوره ... أن نرى سور النهار وسمكات

الصلبة المخضرا ... ركض و... ثمة ثلاثة

قضبان طويلة تقف حائلا بيننا وبين الخروج ... ينبغي

تماما أمر هذه القضبان

صاح (مدحت) في هستيريا

— « لم ننته بعد ... سيهشم الباب الخارجي ... به

قليل لنا خمسة ويمكننا استخدام قطع الأثاث تلك »

نظرت إلى (إلهام) الدامعة وقد تشوشت ثيابها

واختلطت خصلات شعرها بالقذر والعرق ... كانت واهنة

تماما ... ظلت في ترددها

— « نحن أربعة فقط ! ... لا تنس ذلك »

وتعاونت نحن الأربعة على جمع ... فتعطلت

الصحفة ... كان ظهري يوشك على أن ينشطر شطرين

وعروق عنقي ستنفجر ... لكني تماسكت

هيا بنا ! ... مرقص ... الإسكي ... نحو الباب

الضخم ... هرب ! كانت الصدمة شديدة ...

... وسقطنا جميعا على الأرض ... أن الباب

لم يعد الآن مستجيبا !

— « لا جدوى ... سيحولون إلى ... قبل أن يتزحزح

هذا الباب ! »

هتف (عماد) في جنون

— « إن ... سنظل ... نموت جوعا ! »

... في ضيق محاولا أن أمنع نفسي من ضربه

— « لم أعد أعرف ما إذا كنا سنظل هنا أم لا ... قبل

ما ... تطبق فك وتختنق بزرقة ... ! »

— « حسن ... لا بد ألا نفقد أعصابنا ... إن ... عائلتنا

لن تلبث أن تلحق بنا ... »

وعندما فكرت في ... عن السبيل الأمثل للخروج من

هذا المأزق ... وما لبث (مدحت) أن هتف وقد لمعت

عيناه

— « لا بد أن مفتاح هذا اللغز في مكان ما .. ثم إننا لم نحاول الصعود لسطح البيت لقربهما تمكنا من طلب العون .. »

— « سيظنوننا أشباحًا ويهربون مذعورين .. لكن الأمر جدير بالمحاولة »

ثم إنني تذكرت شيئًا .. فترجمته ؟ لقد جعلتها (شيراز) كي تمنعني من الصعود للطابق (إلهام) فكيف نصعد إذن ؟

وهنا سمعت ضحكة (شيراز) الرقيقة

ورأيتها واقفة على (الدرابزين) في الطابق العلوي حيث كانت (إلهام) معه تضحك .. وسمعتها تقول مبتسمة :

— « مازلت تسأل .. ليس كذلك ؟ إن البيت مخيف أكثر مما يبدو في الواقع ! »

ومدت إصبعيها السبابة والإبهام للأمام وفرقعت بهما

— « ما هو الحل ؟ لا حل .. ستحاولون كثيرًا وقليلًا لعلكم ستعرفون الآن حل هذا اللغز ! اللغز .. فهذا يسليني ! »

نظرت في تؤدة إلى سقف المكان الذي وقفت فيه ورفعت رأسي صائحًا

— « تغيرت كثيرًا يا (شيراز) »

— « ومن لم يتغير ؟ »

— « كنا نحبك حقًا »

— « ورغم هذا تخليتم عني »

— « كنا مجبرين .. أقسم لك على هذا .. كنا أطفالا لا نملك خيارًا .. »

ثارت مشاعر (إلهام) في عروقه حنقًا .. وهتفت

— « على الأقل كانت هذه الشيطانة تملك الخيار وقد اختارت .. اختارت الشر والحقد .. وبهذا تحتم الأمر .... »

— « كانت مجرد طفلة .. »

— « الشيء الوحيد .. وهي تقول — أن الطفلة البريئة الصغيرة — أجبرت على أن أقاسي الوحدة .. وحدة الأشباح المريرة .. لكل ما تطاولون .. تتحسسون كالتوابيت . وبهذا الشر يتحور في أعماقي ويطفح على وجهي .. أنتم لم تروا وجهي بعد .. لكنكم سترون ما وصل إليه »

— « فلتقتلينا جميعًا بجبروتها ؟ »

— « لكن لتقتلوها بكامل إرادتكم .. من ثم استحقاقكم مصيرها »

تقدمت (عبير) تلتصق بجواري .. وصاحت بوجه (شيراز) :

— « (شيراز) ! .. نحن مستعدون الآن لعودة صداقتك وأن نحبك كما كان في الماضي .. »

ضحكت (شيراز) في سخرية .. أقسى ضحكة سمعتها في حياتي :

— « لن يعود الزمن كما كان أبدا .. أمس كنتم تعاملونني بحمق وبراءة الطفولة ولم تكونوا مضطرين .. أما اليوم فأنتم مضطرون .. وتحملون تراث البالغين الفاسد .. ثم تقولون لي .. لنعد كما كنا .. مستحيل يا صغيرتي .. » .

تقدم (محمد) إلى الأمام بجواري .. (كأنها مسرحية سخيفة تقدمها إحدى فرق الأقاليم المسرحية حين يتقدم كل ممثل إلى مقدمة المسرح ليقول عبارة ما)

— « أيتها الحمقاء .. لن يلبث ذوونا أن يبحثوا عنا وهم يعرفون أين يبحثون .. إن زوج (عبير) لعلى استعداد لأن يحطم الباب حطما بعد ساعة من الآن .. »

— « ساعة من الآن ؟ »

دوى صوت (شيراز) البارد القاسي .. ومتوعدة ربما ..

— « من قال إنني سأنتظر ساعة كاملة ؟! .. إن المسرح سيبدأ الآن حالا ! »

* * *

في اللحظات التي سبقت ما حدث بعد ذلك كان عقلي يعمل بسرعة جنونية ..

الأسرة مات جميع أفرادها — بما فيهم الخدم — في زلزال هذه القرية .. فكيف ماتوا ؟ ولماذا عادوا للظهور بعدها ؟ .. الفتاة في حاجة للأصدقاء .. وهي تعاني حرمان الصحبة .. لكن لماذا هذه الأهوال بالذات ؟ ولماذا الحريق .. لم تتحول إلى سبع ؟ .. لماذا انتظرت حتى نقترب من سن الكهولة لتطاردنا ؟ .. ثم — وهو الأهم — أين ذهب باقي أفراد الأسرة ؟ .. أين الأم والخدم ؟ .. لم يمهلنا تفكيرنا في الإجابة على هذه الأسئلة ..

أشعر بذلك بكل جوارحي ..

وهنا صرخت (عبير) في هلع كأنها ترى الشيطان :

— « انظروا ! »

نظرنا — بالطبع — إلى حيث أشارت فرأينا

رأينا عيونا حمراء تلتمع في الظلام وسمعنا فحيحا

ولمحنا في ضوء النهار المتسرب من النافذة المحطمة أشخاصا يلتمعون سحوبا ومن الواضح أنهم يريدون شرا

— « أعوذ بالله »

كذا صاح (عمد) — ربما أنا — وهو يلتصق بالآخرين مصعوقا ... خمسة أطفال يرتجفون وهم يرون خيالنا تحاصرهم

آه لو كان مسدسي معي !

لن يجدي شيء مع هذه المسوخ لكنه — على الأقل — سيجعل نهايتنا مشرفة ... مسست جيبي بيدي ... و غريب هذا ! إنه في جيبي ... ما هذا العبث ؟ ومن الذي .. "

صحت في الآخرين وقد بدأت أفهم ما حدث

— « معذرة يا شباب ... إن كل هذا ليس حقيقيا ! »

نظر إلي (ممدوح) في حيرة

— « تعني ... مثل الأوهام السابقة التي رأيناها ؟ »

— « بل الأمر وهم في وهم ... الأمر كله هلوسة جماعية نعيشها الآن ! »

إن البيت يفتعل مسكوني ... مسكون بطاقة هائلة تجعله يهلوسك ... "

— « و (شيراز) ؟ وحقائبها ؟ »

— « أعتقد أن (شيراز) والسيارة والطعام ... وكل شيء رأيناه وهم لا وجود له إلا في عقولنا »

صاح (عمد) ولسان حاله يقول إنني جئت لأموت؛

— « وهذه الأشياء التي تهاجمنا الآن ؟ »

صرخت بأعلى صوتي محاولا تحريك هؤلاء الحمقى

— « تماسكوا ... فكروا في لحظاتكم السعيدة وفي مغامراتكم ... انسوا الفزع ... ولا يقترب أحدكم إلا في أسطانه الآخرين ونظريتنا المشتركة المجهولة تماسكوا ! »

« ليمسك كل منكم يد الآخر ... ولا يدع البيت يهزمه ... »

كان زئير الأشباح يتعالى وهي تقترب ... تكاد تشم رائحة أنفاسها ... العرق يسيل على جباهنا وأيدينا تتراخى ... لكننا نتماسك ... (عبير) تبكي ... و (عمد) يرتجف كالورقة ... منظاري يتدحرج على أنفي لكنني لا أجرؤ على رفعه حتى لا أترك يد (ممدوح) ... ويد (إلهام) .

— « رائع يا رفاق ! استمروا ... ألستم ترون أن الأشباح لم تستطع فعل شيء ... إن الوهم لا يؤذي »

مرت دقائق عصيبة ..

وفجأة ساد الهدوء .. فتحنا عيوننا ببطء لنجد مدخل البيت والمائدة وكل شيء لكن لا أشباح .. ولم تعد (شيراز) واقفة على (درابزين) السلم ..

– « الآن فتحوا أعينكم ! » :

وأشعلت سيجارة على حين استرخى الآخرون على الأرض من حولي غير عابئين بالغبار .. كان الفضول يعتصرهم ليفهموا ما حدث ..

– « والآن .. هلا فسرت لنا ؟ » .

افترشت الأرض جوارهم ونفثت حلقة من الدخان ..

– « قبل أن أتكلم .. هلا نظرتم إلى الباب وأخبرتموني هل هو مفتوح أم مغلق ..؟ وهل درجات السلم مهشمة ؟ » .

– « هو مفتوح ...! ودرجات السلم سليمة تماما .. » .

– « كما تركناها ؟ » .

– « كما تركناها ... » .

– « إذن اسمعوا لما سأقول .... » .

* * *

١١ ـ الخاتمة ..

في دار (مدحت) جلسنا نرشف الشاي ونتناول طعام الإفطار ، على حين أخذت زوجته تداعب (إيهاب) وتسري عنها ...

قلت لهم مفسرا ما كان مني في البيت : إنني بدأت أعتقد أن الأمر كله وهم منذ وجدت المسدس في جيبي برغم أنني لم أجده لحظة الدخول .. فسألت نفسي : أمن الممكن أن يكون المسدس في جيبي طيلة الوقت .. وأنني لم أجده لأنني (توقعت ذلك) ؟.. بمعنى آخر .. هناك قوة ما جعلتني أتخيل اختفاء المسدس برغم أنه كان معي من البداية ...

ثم سألت نفسي .. ما سر عودة (شيراز) لمطاردتنا بعد كل هذه الأعوام ؟..

لماذا نسيتنا ثلاثين عاما ثم عادت تتذكرنا ؟.. إن الأمر يبدو متناقضا حتى بمنطق الأشباح .. هل حقا رأينا شبح (شيراز) وأنها لم تكن تمهلنا ذلك ؟..

ثم ـ بمنطق البشر والأشباح ـ هل خطأ (إيهاب) القديم يستحق كل هذا العقاب ؟.. لا أظن ..

إن قصة الشبح الطفل المحروم من الصحبة الآدمية لا تروق لي كثيراً ولا أعتقد أنها تبرر كل ما حدث ....

إذن .. لماذا لا تكون (شيراز) وأمها وغرام الطفولة و... و... كلها خيالات ؟.. مجرد أوهام عشناها بكل تفاصيلها حين أجبرنا الفضول على دخول هذا البيت ؟.. من يدري ؟.. لربما كان عددنا خمسة لا ستة كما ظننا .. ولربما كنا نلعب الغميضة ونثرثر ونتشاجر من أجل لا شيء .. ومع لا أحد ..

لقد صدقت (عبير) حين قالت : إن البيت حيّ ....

هذا أمر لا شك فيه .. وهو التفسير الوحيد لكل ما رأيناه .. كان البيت يحوي طاقة نفسية هائلة قادرة على خلق مئات الرؤى التي نراها جميعاً في نفس الوقت ....

والحقيقة التي غابت هنا هي أن الباب ظل مفتوحاً ولم ينغلق .. لكننا جميعاً حسبنا أنفسنا سجناء ..

البيت جعل أطفالنا يرون (شيراز) وجعلنا نحن أيضاً نراها في صغرنا ....

لكن (شيراز) لم توجد .. أو — على الأقل — لم تصر شبحاً ....

وأعتقد كذلك أن البيت هو المسئول الأول عن مقتل الأسرة التي كانت تسكنه قديماً .. فربما أغرقهم في

وهمنا .. لم يفيقوا منه قط .. نحن جميعاً قاسينا الهلاوس البصرية والسمعية وعرفنا كيف تبدو حقيقية .. (إلهام) ألقت نفسها من فوق الدرابزين لمجرد رؤيتها مسخاً وهمياً .. ونحن حطمنا ظهورنا محاولين اقتحام باب مفتوح من البداية .. وقضينا أسود ساعات حياتنا في خيالات لا طائل منها ..

لقد نال البيت منا .. فهو بعد كل هذه الأعوام لم يزل طفلاً يعشق اللهو ويهوى أن يتلاعب بالآخرين ..

سألني (مدحت) وهو ينتزع لفافة تبغ من علبتي :

— « وما سر هذه الطاقة الهائلة الكامنة فيه ؟ » .

— « لا أدري .. لكن هذه الأشياء تحدث .. وغالباً ما يتضح أنه مبني فوق مقابر قديمة اختلطت أساساته بعظام سكانها أو شيء من هذا القبيل ... » .

— « يصعب التأكد من هذه النقطة .... » .

— « السؤال الأهم هنا هو : لماذا أراد البيت أن نعود له ؟ .. لا أعتقد أنه اشتاق للعبث .. أعتقد أنه أراد أن يقدم لنا الحل لخلاصه .. إن البيت يريد أن يفنى ونحن فقط نعرف كيف .... » .

— « النار ؟ » .

ابتسمت في ودّ وأشعلت لفافتي :

— « بالفعل .. النار .. لقد ذابت كل الأوهام بمجرد أن ظهرت النار ... » .

وهذه هي الرسالة التي أراد البيت أن يوصلها لنا حين أغرقنا بنخوله .. وحتى لو كان اعتقادنا خاطئا فإنني أعتقد أن هذا البيت المشئوم يجب أن يباد تماما .. من أجلنا ومن أجل أطفال صغار سيتخلفونه في جيل قادم ليلعبوا مع (شيرلي) أو واحدة أخرى .... » .

تفكر (مدحت) في كلماتي برهة .. ثم قرب فمه من أذني وهمس :

— « ليكن .... ولكن متى ؟ » .

* * *

بعد هذا بيومين أتت النيران على البيت تماما ...

يقول رجال المطافئ إن هذا تم بفعل فاعل تسلل ليلا وسكب جالونات عديدة من (الكيروسين) .. ويقول عابر سبيل إنه شاهد ثلاثة رجال أحدهم نحيل أصلع واثنان متشابهان كالتوائم .. شاهدهم يقتحمون البوابة ليلة الحادث ...

لكن — والحق يقال — لم يشعر واحد من أهل (المنصورة) بالحسرة على احتراق هذا البيت الذي يخشاه الجميع ..

حتى مالك البيت — الوريث — وجد أخيرا الفرصة لبيع الأرض بعد أن يئس تماما من العثور على مشتر لهذا البيت ...

فقط يقول الجيران إنهم سمعوا صوتا غريبا كأنه ضحك ينبعث من بين ألسنة اللهب المتصاعد من البيت المهجور ..

لكنهم لم يعلقوا أهمية على هذا ...

بعد هذا بيومين ودعت الأصدقاء لأعود إلى القاهرة .. سألني (مدحت) في قلق :

— « هل تظن أن النار كافية ..؟ » .

بقيت أبتسم :

— « من يدري ؟.. على كل حال إذا لم تكن كافية ستعرف ذلك في القريب العاجل .. وليكونن الظلام البيت رهيبا ! » .

— « إذن .. فلترحل قبل أن أحطم وجهك ! » .

وهكذا ...

عدت للقاهرة .. عدت بقصة غامضة أخرى أدونها في كراسة مذكراتي وأحكيها لـ (هويدا) في ليلة صيف ساحرة ..

لكن الرعب هو قدري .. وحياتي لا تستقيم بهذه السهولة كما لابد أنكم قد تعودتم ..

كان اللهب يتطاير .. ويتصاعد .. وكان محتمًا أن ألهو ثانية علمًا أنها قد تكون المرة الأخيرة ..

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٣

* * *